تقريب القرآن إلى الأذهان الجزء ٣

المرجع الديني
السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره)

من آية (٢٥٤) سورة البقرة
إلى (٩٣) سورة آل عمران

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله ربِّ العَالَمينِ، وَالصَلاَةُ وَالسَّلامُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمرْسَلِينِ مُحَمَّدِ المصْطَفى وَعِترتِهِ الطَّاهِرِينْ

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٥) اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٦) لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٧)

[٢٥٤] {تلك الرسل} الذين أشير إليهم في قوله «إنك لمن المرسلين» {فضلنا بعضهم على بعض} فهم وإن اشتركوا في أصل الرسالة إلا أنهم مختلفين في الفضيلة {منهم من كلم الله} إياه وهو موسى (عليه السلام) وحيث أن هناك محل سؤال: هل يمكن للإنسان أن يرتقي هذا المرتقى العظيم حتى يكلمه الله سبحانه؟ ألمحت الآية إلى ذلك قائلة: {ورفع بعضهم درجات} لا درجة واحدة، حتى سببت تلك الرفعة أن يتمكن من مكالمة الله مباشرة {وآتينا عيسى ابن مريم البينات} وأنه لمن تفنن القرآن الحكيم في التعبير حيث لم يصرح باسم موسى وصرح باسم عيسى (عليه السلام) والبينات هي الدلالات الواضحات على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص {وأيدناه} أي قويناه فإن التأييد بمعنى التقوية {بروح القدس} أي روح مقدسة، كما مر سابقاً فلم يكن إنساناً عادياً ولا خالقاً ورباً وإنما نبي مؤيد من عند الله سبحانه، وحيث كان هنا مجال سؤال هو أن الأنبياء حيث أتوا بالدلالات لم يكن مجال لتشكيك الناس فيهم فكيف تقع الحروب بين الناس حول الأنبياء (عليهم السلام) إثباتاً أو نفياً أو إثباتاً لنبي دون نبي؟ أتى السياق مشيراً إلى جواب ذلك {ولو شاء الله} بأن ألجأ الناس واضطرهم على الانقياد والاهتداء {ما اقتتل الذين من بعدهم} أي من بعد الرسل أي بعد مجيء كل واحد منهم {من بعد ما جاءتهم البينات} أي جاءت الناس الأدلة الواضحة {ولكن اختلفوا} أي الناس {فمنهم من

آمن ومنهم من كفر} بالرسول {ولو شاء الله مااقتتلوا} تكريراً للتأكيد وأن المشيئة الإلجائية لم تتعلق حول التشريع وإن تعلقت حول التكوين {ولكن الله يفعل ما يريد} من إعطاء الاختيار بيد الإنسان ليؤمن من آمن عن اختيار ويكفر من كفر عن اختيار ليثبت الجزاء والحساب ولم يذكر الرسول (صلى الله عليه وآله) لأن الخطاب موجه إليه «وإنك لمن المرسلين».

[٢٥٥] وحيث أن القتال يحتاج إلى الإنفاق يزاوج القرآن الحكيم في آياته بين الأمرين كثيراً {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم} من مختلف أنواع الرزق، ولعل عمومه يشمل مثل التعليم والشفاعة ونحوها فإن العلم والوجاهة من رزق الله سبحانه {من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه} حتى يشتري الإنسان نفسه بشيء فينجيها من عذاب الله سبحانه {ولا خلة} أي صداقة فيراعى الصديق المذنب لأجل صديقه، أو صداقة بين الله وبين أحد حتى يراعيه ويغفر ذنبه لصداقته {ولا شفاعة} كشفاعات الدنيا حيث أن الشفيع ينبعث من نفسه فيشفع للمذنب، فإن هناك لا يشفعون إلا لمن ارتضى {والكافرون هم الظالمون} فليس حرمان الكافر في ذلك اليوم لأجل الظلم من قبل الله سبحانه بل الكافر هو الظالم الذي استحق العقاب بكفره وظلمه نفسه حيث حرمها من نيل المثوبة.

[٢٥٦] {الله لا إله إلا هو} فالأمور في يوم القيامة كلها بيده لا يشارك فيما يفعل ولعل هذا هو وجه الارتباط بين هذه الآية والآية السالفة {الحي} الذي لا يموت فلا يمكن التخلص منه {القيوم} القائم على الأمور يعلمها جميعاً فلا يمكن الاختفاء منه.

{لا تأخذه سنة} وهي النوم الخفيف المسمى بالنعاس {ولا نوم} وقدم الأول لتقدمه في الخارج {له ما في السماوات وما في الأرض} فهو الخالق والمالك الوحيد الذي لا يشاركه أحد، والظرف هنا يتبع المظروف فليست السماوات والأرض خارجتين عن الملكية {من ذا} أي أي شخص {الذي يشفع عنده} يوم القيامة {إلا بإذنه} استفهام إنكاري فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم} أي ما يقدمون من أعمال خير وشر وما يخلفون من بعدهم كبناء مدرسة أو مخمر يبقيان بعده {ولا يحيطون بشيء من علمه} أي بما يعلمه من الماضي والحاضر والآتي {إلا بما شاء} أي بما أراد من إطلاع الناس عليه فإن علم الشخص حتى بالضروريات مما تتعلق به مشيئة الله سبحانه فإنه هو الذي جعل الإنسان بحيث يعلم الأمور في الجملة {وسع كرسيه السماوات والأرض} الكرسي كناية عن السلطة والملكية يقال: كرسي فلان يسع العراق إذا كان ملكاً عليها، أي أن سلطة الله سبحانه تشمل جميع الكون، فإنه لا يخلو من سماء وأرض {ولا يؤوده} أي لا يشق عليه تعالى، من آده يأده، إذا أثقله وجهده {حفظهما} أي حفظ السماوات والأرض بالتربية والتنمية والإصلاح {وهو العلي} أي الرفيع مقاماً {العظيم} الشأن.

[٢٥٧] {لا إكراه في الدين} فإن الله لم يلجأ الخلق إلى اعتناق الدين بل جعل فيهم الاختيار والإرادة فإن شاءوا دانوا وإن لم يشاءوا لم يدينوا {قد تبين} أي وضح {الرشد من الغي} أي الهداية من

الضلالة والإيمان من الكفر والحق من الباطل {فمن يكفر بالطاغوت} وهو كل ما يعبد من دون الله {ويؤمن بالله} وحده، وقدم نفي الكفر لأن النفي مقدم على الإثبات كما قدم في كلمة «لا إله إلا الله» {فقد استمسك} أي تمسك واعتصم وأخذ {بالعروة} وهي «المسكة» لمثل الكوز {الوثقى} أي الوثيقة التي لا تنفصل فقد شبه الخير بإناء للسقي أو الطعام له عروة فالإيمان بالله عروة وثقى للخير لأنه {لا انفصام لها} ولا انقطاع بل تدوم الاستفادة من الخير بسبب الإيمان في الدنيا والآخرة بينما الإيمان بالطاغوت عروة واهية تنفصم إذا فارق الإنسان الحياة الدنيا ينقطع الخير الذي يناله الإنسان ـ فرضاً ـ بسبب الكفر {والله سميع} لأقوالكم {عليم} بنياتكم وأعمالكم.

اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٩) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦٠)

[٢٥٨] {الله ولي الذين آمنوا} يلي أمورهم وينصرهم ويعينهم {يخرجهم من الظلمات} ظلمات الحياة ومشاكلها، من ظلمة العقيدة، وظلمة القول وظلمة الدنيا كلها {إلى النور} نور الهداية، ونور الآخرة {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت} أي أن جنس الطاغوت يكون أولياء لهم، فإن الطواغيت من الجن والإنس يتولون أمورهم وضلالهم وحيث أن الطاغوت أريد به الجنس جاز الإتيان بصيغة الجمع في «أوليائهم» صفة له {يخرجونهم من النور} الكامن في فطرتهم، ومن نور الدنيا {إلى الظلمات} ظلمات الكفر والظلال في الدنيا وعذاب الله في الآخرة {أولئك} الذين كفروا {أصحاب النار هم فيها خالدون} إلى الأبد فلا منجي لهم ولا مخلص

[٢٥٩] سبق الحديث عن الإيمان والكفر، فلتناسب المقام قصة حوار حول هذا الموضوع بين إبراهيم (عليه السلام) ونمرود {ألم تر} أي ألم تعلم، وقد تقدم أن هذه العبارة تذكر لإفادة العلم {إلى الذي حاج} من المحاجة بمعنى المجادلة والمخاصمة {إبراهيم في ربه} أي في باب رب إبراهيم (عليه السلام) الذي كان يعبده، أو رب الذي حاج وإن كان الأول أقرب {أن آتاه الله الملك} أي حيث أن الله أعطى نمرود الملك والسلطة بطر فأنكر وجود الخالق وجعل يجادل نبيه إبراهيم (عليه السلام) حول وجود الله سبحانه فقد قابل الإحسان بالإساءة {إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت} في جواب نمرود حيث قال له: من ربك؟ والمراد بالإحياء إحياء الجماد فإن كل حي أصله التراب والماء إذ التراب بسبب الماء ينقلب عشباً والعشب ينقلب نطفة إنساناً أو حيواناً {قال} نمرود {أنا أحيي وأميت} فأخرج نفرين من حبسه وضرب عنق أحدهما وأطلق الآخر وكان هذا مغالطة من نمرود إلا أن إبراهيم (عليه السلام) أراد أن يلزمه بحجة لا يتمكن حتى من المغالطة فيها ف {قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من

المشرق} هكذا يظهر للأبصار سواء دارت هي أو دارت الأرض كما يقوله بعض علماء الفلك {فأت بها من المغرب} إن كنت إلهاً خالقاً {فبهت الذي كفر} أي تحير نمرود ولم يحر جواباً {والله لا يهدي القوم الظالمين} الذين ظلموا أنفسهم بتعاميهم عن الحق فإنه سبحانه لا يلطف لطفه الخاص بمثل هؤلاء وإن أتم عليهم الحجة وأراهم الطريق.

[٢٦٠] {أو كالذي مر على قرية} أي ألم تر إلى الذي مر على قرية، والمعنى إن شئت فانظر إلى الذي حاج وإن شئت فانظر إلى الذي مر على قرية وهو عزير النبي (عليه السلام) أو أرميا {وهي خاوية على عروشها} أي ساقطة حيطانها على سقوفها وأهلها موتى والسباع تأكل الجيف ففكر في نفسه ساعة {قال أنى} أي كيف {يحيي هذه} الأموات {الله بعد موتها} وكان ذلك منه تعجباً لا إنكاراً {فأماته الله مائة عام} حتى بلي ونخرت عظامه {ثم بعثه} أحياه كما كان {قال} الله سبحانه له بإيجاد صوت في الجو {كم لبثت} في مبيتك ومنامك {قال} النبي {لبثت يوماً} ثم نظر فإذا هو نام صباحاً والآن قبل غروب الشمس فأضرب قائلاً {أو بعض يوم قال} الله سبحانه {بل لبثت مائة عام} وقد كان معه طعام وشراب وحمار، فكان الطعام والشراب باقيين كما هما وكان الحمار قد مات وتفرقت عظامه ونخرت دلالة على كمال قدرة الله سبحانه {فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه} لم تغيره السنون، والإتيان بلفظ المفرد باعتبار كل واحد منهما {وانظر إلى حمارك} كيف مات ونخرت عظامه {ولنجعلك} أيها الرسول {آية للناس} أي حجة حيث أحييناك بعد مائة عام حتى يعرف الناس أن الله قادر على بعث الأموات {وانظر إلى العظام} لحمارك المتفتتة {كيف ننشزها} أي كيف نرفع بعضها إلى بعض لنركب منها الهيكل العظمي للحمار {ثم نكسوها} أي نلبس العظام {لحماً} حتى يستوي حماراً حياً {فلما تبين له} أي وضح له إحياء الأموات عياناً {قال} النبي (عليه السلام) {أعلم أن الله على كل شيء قدير} أي علماً عياناً وإلا فقد كان يعلم ذلك قبل السؤال.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦١) مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٢) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٣) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٥)

[٢٦١] {و} اذكر يا رسول الله {إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى} فإنه (عليه السلام) رأى جيفة تمزقها السباع فيأكل منها سباع البر وسباع الهواء ودواب البحر فسأل الله إبراهيم (عليه السلام) فقال: يارب قد علمت أنك تجمعها من بطون السباع والطير ودواب البر فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك {قال} الله سبحانه {أو لم تؤمن} على نحو استفهام التقرير، ليقول آمنت، كقولهم: «ألستم خير من ركب المطايا» {قال} إبراهيم (عليه السلام) {بلى} أنا مؤمن {ولكن} أسأل ذلك {ليطمئن قلبي} ويكون يقيني عين اليقين فإن الإنسان الذي يعلم أن النار ـ مثلاً ـ حارة، يسمى ذلك علم اليقين، فإذا رآها سمي حق اليقين، فإذا أدخل يده فيها فاحترقت سمي عين اليقين، وورد أنه (عليه السلام) علم أن الله يتخذ عبداً له خليلاً إذا سأله إحياء الموتى أحياها فأراد أن يطمئن أنه هو {قال} الله سبحانه {فخذ أربعة من الطير} الطاووس والحمام والغراب والديك فاذبحهن وقطعهن واخلطهن بعضاً ببعض {فصرهن إليك} من صرته بمعنى قطعته و«إليك» إنما هو من مستلزمات القطع، فإن الإنسان إذا أراد أن يقطع شيئاً قطعاً جيداً ويخلطه لا بد وأن يجذبه إليه ولعله كناية عن القطع الجيد والتخليط البالغ {ثم اجعل على كل جبل} من عشرة جبال {منهن جزءاً} وإنما ذلك يدل على أن الأجزاء الميتة تجتمع من محلات متباعدة وقت الحشر {ثم ادعهن} بأن تأخذ بمنقار كل واحد من الطيور الأربعة في يدك وتدعوه باسمه {يأتينك} تجتمع الأجزاء من الجبال {سعياً} مسرعات {واعلم أن الله عزيز} لايمتنع عليه شيء {حكيم} فيما يفعل فلا يفعل شيئاً اعتباطاً وعبثاً، ففعل إبراهيم (عليه

السلام) ذلك فتطايرت الأجزاء بعضها إلى بعض حتى استوت الأبدان وجاء كل بدن حتى نظم إلى رقبته ورأسه فأطلقها إبراهيم (عليه السلام) فطرن فالتقطن الحب وشربن الماء ثم دعون لإبراهيم (عليه السلام).

[٢٦٢] تقدم الكلام في الآيات السابقة عن من يقرض الله قرضاً حسناً، ثم تخلل الكلام دليل التوحيد والرسالة والمعاد والآن يرجع السياق إلى الإنفاق {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} لا رياءً أو سمعة وشهرة ونحوها {كمثل حبة} من الحنطة أو الشعير أو نحوهما {أنبتت} أي أخرجت {سبع سنابل} جمع سنبلة وهي مجمع الحبات {في كل سنبلة مائة حبة} فتكون النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف {والله يضاعف} أي يزيد كل سبعمائة {لمن يشاء} من عباده من المنفقين {والله واسع عليم} يسع علمه وقدرته فيعلم المنفق والإنفاق، وقد مثل الإنفاق بهذا ليكون أوقع في النفس وأكثر في التأثير والتشويق.

[٢٦٣] ثم ذكر شرطاً آخر للإنفاق المثمر الموجب للأجر بقوله تعالى: {الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون} أي لا يعقبون {ما أنفقوا مناً} على المعطى له بأن يمن عليه في إنفاقه كأن يقول له: إني أعطيتك فكن شاكراً {ولا أذى} بأن يؤذى المعطى له، كأن يقول: ابتليت بفلان الفقير {لهم أجرهم} وجزاء إنفاقهم {عند ربهم ولا خوف عليهم} من العذاب لأن من ينفق هكذا يكون مخلصاً في جميع أعماله، أو لا خوف عليهم من فوت الأجر {و لا هم يحزنون} وهو يحتمل الأمرين مثل . لاخوف ..

[٢٦٤] {قول معروف} بأن يرد به السائل، نحو الله يعطيك {و مغفرة} أي تجاوز عن السائل فيما إذا أساء {خير من صدقة يتبعها أذى} لأن الصدقة كذلك تجرح قلب السائل دونهما، ولأنها تتبع العقاب، لأن هكذا صدقة محرمة، بخلافهما {و الله غني} فلا يحتاج إلى صدقاتكم أيها المعطون، وإنما انتم تحتاجون إليها، فحث الله بالإنفاق لكم، لا له {حليم} حليم عن عقابكم بسبب صدقاتكم التي يتبعها الأذى.

[٢٦٥] {يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن} على السائل {والأذى} له فإن فيها إبطالاً للصدقة من حيث الثواب فلا ثواب لها عند العرف لأن مثل هذه الصدقة لا تحسب جميلاً وإنما قبيحاً بشعاً، فإن من يبطل صدقته بالمن والأذى فهو {كالذي ينفق ماله رئاء الناس} لأجل أن يراه الناس فيمدحوه {و لا يؤمن بالله واليوم الآخر} بأن يكون الداعي له إلى التصدق أمر الله سبحانه أو ثواب الآخرة {فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً} الصفوان: الحجر الأملس، والوابل: المطر الشديد الوقع، والصلد من الأرض ما لا ينبت شيئاً لصلابته، فإن الإنسان الكافر كالحجر الصلب الذي لا يرجى منه خير، وما يتحفظ به ظواهره بمنزلة تراب على الحجر يظن الناس أنه محل قابل للنبت، والصدقة التي يرائي بها كالمطر الشديد، فإنه إذا نزل بأرض صالحة كان مبعث الخير والنبات لكنه إذا نزل على الحجر المغطى بالتراب أزال ترابه وأظهر صلادته وعدم قبوله لأي إنبات أو عشب، وكذلك

الكافر الذي يظن به الناس بعض الخير إذا أنفق رياءً ظهر على الناس حقيقته المنحرفة فتكون الصدقة ـ التي هي بذاتها سبب الخير والرحمة ـ معرية لحقيقة الكافر البشعة، ومن ناحية أخرى أنها توجب سخط الله عليه أكثر من ذي قبل فتكون مذهبة لما يظن أنها حسنة له من بعض أعماله الخيرية السابقة {لا يقدرون على شيء مما كسبوا} من مكاسبهم السابقة لأن الصدقة برياء ذهاب بها كما أن المطر يذهب بالتراب فلا يمكن إرجاعه وجمعه {و الله لا يهدي القوم الكافرين} فلا يلطف بهم اللطف الخاص لأنهم أسقطوا أنفسهم عن القابلية لجحودهم بعد أن عرفوا الحق.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٦) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٨) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٩) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ (٢٧٠)

[٢٦٦] {ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله} أي لأجل طلب رضى الله سبحانه {و تثبيتاً من أنفسهم} أي لأجل تثبيت أعمالهم الحسنة وتركيزها، تثبيتاً ناشئاً من أنفسهم فأنفسهم هي التي توصي بذلك، لا كالمرائي الذي يحمله على الصدقة رؤية الناس، فهذه الجملة «من أنفسهم» مقابل جملة «رئاء الناس» في الآية السابقة {كمثل جنة بربوة} أي بستان مرتفع {أصابها وابل} مطر غزير {فآتت} أي أعطت {أكلها} وثمرها {ضعفين} فإن الإنسان المؤمن كالبستان الواقع في مرتفع يزهو للناس ويكون أقرب إلى الاستفادة من الهواء والشمس والمطر، فإن المؤمن أقرب إلى الخير فإذا تصدق تكون صدقته كالمطر الذي إذا نزل بالبستان يوجب نمو ثمارها وازدهار أشجارها {فإن لم يصبها وابل} مطر غزير {ف} يكفي لإثمارها وإنضارها {طل} رذاذ من مطر قليل {و الله بما تعملون بصير} فيجازيكم على أعمالكم إن رياءً وإن قربةً.

[٢٦٧] ولما مثل سبحانه لصدقة كل من المؤمن والكافر، مثل لصدقة المؤمن الذي يمن بصدقته فيبطلها {أيود} أي هل يحب {أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار} أي تحت أشجارها {له فيها} أي في تلك الجنة {من كل الثمرات وأصابه الكبر} أي الشيخوخة {و له ذرية ضعفاء} عاجزون عن كسب المأكل والملبس {فأصابها} أي أصاب الجنة {إعصار فيه نار فاحترقت} كلا لا يحب أحد ذلك إنه في أشد أوقات حاجته، فهل يرضى إصابة النار بأثمن ما يملك؟ إن مثل من ينفق عن إيمان واعتقاد مثل تلك الجنة، فإذا امتن بعد ذلك أو آذى السائل، يكون ذلك ناراً تحرق جنته في أشد أوقات حاجته، فالإنسان في أشد الحاجة إلى خيره في الآخرة، فإذا امتن بقي صفر

اليدين هناك {كذلك} أي كهذا البيان الذي بين أمر الصدقة وغيرها {يبين الله لكم الآيات} بضرب الأمثال والمشوقات {لعلكم تتفكرون} فتستقيموا على الصراط المستقيم.

[٢٦٨] {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم} طيباً واقعياً بكونه حلالاً وظاهرياً بكونه جيداً {و من} طيبات {ما أخرجنا لكم من الأرض} أي طيب مكسبكم وطيب ثماركم، فلا تنفقوا من الربا ولا من الماء الآجن ولا من حشف التمر ـ مثلاً ـ {و لا تيمموا} أي لا تقصدوا {الخبيث} الحرام الرديء {منه تنفقون} للناس {و} الحال أنكم {لستم بآخذيه} فإن أراد أحد إعطائكم من ذلك ما كنتم تأخذونه {إلاّ أن تغمضوا فيه} أي تغمضوا عيونكم كراهة له، فالإنسان إذا أستبشع شيئاً غمض عينه حتى لا يراه، فكيف تنفقون مثل هذا الشيء الذي إذا أردتم أخذه غمضتم عينكم استبشاعاً له {و اعلموا أن الله غني} عن صدقاتكم فلا يأخذ إلا الطيب ولا يقبل إلا الحسن {حميد} أي مستحق للحمد على نعمه، ومن حمده أن يعطي الإنسان الشيء الطيب في سبيله، فالإنسان إذا أراد تقدير شخص دفع إليه أحسن ما يتمكن، لا أنه يدفع الرديء الخبيث.

[٢٦٩] {الشيطان يعدكم الفقر} إذا أردتم الإنفاق في سبيل الله {و يأمركم بالفحشاء} إذا أردتم الإنفاق يقول لكم: أنفقوا من الرديء الخبيث، وهو قسم من الفحشاء، أو المراد به الأعمال القبيحة مطلقاً، {و الله يعدكم مغفرة منه} فإنه يغفر ذنوبكم بسبب الصدقة وسائر المبرات {وفضلاً} فيخلف ما أنفقتموه {و الله واسع} ليس ضيق المقدرة حتى لا يتمكن من التعويض {عليم} بما تعطون فيجازيكم بالحسن حسناً وبالسيئ سيئاً.

[٢٧٠] إنَّ الإنفاق في سبيل الله من الطيب بلا رياء ولا منّ ولا أذى من الحكمة التي هي وضع الأشياء موضعها اللائق والله سبحانه {يؤتي الحكمة من يشاء} ممن له قابلية بما سبق أن أخذ بالشريعة {و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً} وأي خير أعظم من أن يعمر الإنسان دنياه وعقباه بأخذه بأوامر الله سبحانه وانتهاجه المنهج المستقيم الموجب لسعادة النشأتين {و ما يذكر} أي ما يتذكر ولا يفهم ذلك {إلا أولوا الألباب} أصحاب العقول فصاحب العقل هو الذي يتبع ما ينفعه ويذر ما يضره.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧١) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧٢) لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٣) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٤) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٥)

[٢٧١] {وما أنفقتم من نفقة} قليلة أو كثيرة أي أية صدقة تصدقتم بها {أو نذرتم من نذر} أي ما أوجبتموه على أنفسكم لله بسبب النذر {فإن الله يعلمه} فيجازيكم عليه ويكون ذلك سبباً للإحسان إلى النفس {و ما للظالمين} الذين يظلمون أنفسهم بالشح ومنع الصدقات الواجبة وحنث النذر والمن والأذى والرياء في الصدقة {من أنصار} ينصرونهم ويخلصونهم من عقاب الله سبحانه.

[٢٧٢] {إن تبدوا} أي تظهروا {الصدقات} حين إعطائها، بأن تعطوها جهراً، بقصد القربة لا بقصد الرياء {فنعما هي} أي فنعم الشيء الصدقة الظاهرة فإنها توجب دفع التهمة وإقتداء الناس {و إن تخفوها} أي الصدقات {و تؤتوها} أي تعطوها سراً {الفقراء فهو خير لكم} لأنه أقرب إلى القربة وأبعد عن الرياء وأحفظ لصون ماء وجه الآخذ {ويكفر} أي يغفر {عنكم من سيئاتكم} أي بعض ذنوبكم بواسطة إعطاء الصدقة فإن صدقة السر تطفي غضب الرب {و الله بما تعملون خبير} فيجازيكم على أعمالكم، فليس التصدق سراً غائباً عن الله سبحانه بل هو بكل شيء عليم.

[٢٧٣] امتنع بعض المسلمين عن التصدق إلى غير المسلم فنزلت {ليس عليك هداهم} فإنك لست مجبوراً بأن تهديهم وإنما عليك الإرشاد والبلاغ {ولكن الله يهدي من يشاء} إلى الصراط المستقيم، باراءته الطريق، أو بإيصاله المطلوب {و ما تنفقوا من خير فلأنفسكم} فإن نفعه الدنيوي والأخروي يعود إليكم {و ما تنفقون} أي ليس إنفاقكم {إلا ابتغاء وجه الله} أي لأجله سبحانه، وأي شيء أحسن من أن ينفق الإنسان في سبيل خالقه ومنعمه والمتفضل عليه {و ما تنفقوا من خير يوف إليكم} أي يوفر عليكم جزاءه وثوابه {و أنتم لا تظلمون} فتعطون جزاء إنفاقكم كاملاً غير منقوص، فالإنفاق

لأنفسكم، وثوابه يعود عليكم، وهو في سبيل الله وما أجمل أن يعطي الإنسان شيئاً يعود نفعه إليه ثم يثاب به في الآخرة، ويرضى الله سبحانه عنه بذلك.

[٢٧٤] ولما بين الله سبحانه فضل الصدقة عقبه بأحسن مصارفها بقوله سبحانه: {للفقراء} أي أن النفقة لهؤلاء {الذين أحصروا في سبيل الله} أي منعوا والذي منعهم هو أنفسهم، لأجل سبيل الله وإطاعته ، فقد نزلت الآية في أصحاب الصفة الذين تركوا كل شيء لأجل الإسلام وأحصروا أنفسهم للعبادة والجهاد بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) {لا يستطيعون ضرباً في الأرض} أي ذهاباً فيها وعدم الاستطاعة اختيارية لا اضطرارية {يحسبهم الجاهل} أي يظنهم الذي يجهل حالهم وباطن أمرهم {أغنياء من التعفف} الامتناع من السؤال فإن الناس إذا رأوا تعففهم ظنوهم أغنياء لما عهدوا من سؤال الفقراء {تعرفهم} أي تعرف إنهم فقراء {بسيماهم} أي من وجوههم وأحوالهم يكون الفقر عليها باد {لا يسألون الناس إلحافاً} أي كما هو شأن كثير من الفقراء، بمعنى أنه ليس منهم سؤال فيكون إلحافاً، لا إنهم يسألون من غير إلحاف {و ما تنفقوا من خير} كل شيء يطلق عليه الخير من دار أو عقار أو درهم أو دينار أو غيرها {فإن الله به عليم} لا يفوته شيء فيجازيكم جزاءً حسناً.

[٢٧٥] {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية} بالليل سراً وعلانية وبالنهار سراً وعلانية {فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} إن الآية وإن كانت عامة إلا إنها نزلت في علي (علبه السلام) حيث كانت له أربعة دراهم فتصدق باثنين منها نهاراً سراً وعلانية وباثنين ليلاً سراً وعلانية[1]، وقد تقدم معنى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٢٨٨.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٦) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٩) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٨٠) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨١) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٢٨٢)

[٢٧٦] وحيث كانت الآيات حول الإنفاق، ناسب السياق ذكر الربا، فإنه عكس الإنفاق إذ هو استيلاء على أموال الناس من غير مبرر، بخلاف الإنفاق الذي هو إعطاء ماله للناس من غير مكسب وتجارة {الذين يأكلون الربا} وأكله كناية عن أخذه وإن لم يتصرف فيه {لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} الرجل الذي مسه الشيطان فصرع وتغير حاله ودارت عينه وزال توازن جسده وزبد فمه إذا أراد أن يقوم لبقية ما فيه من الشعور يقوم بعض القيام بكل انحراف وتأرجح ثم يسقط على الأرض، وهكذا الإنسان الذي يأكل الربا حتى اعتاد ذلك يكون أشبه شيء في عملية انتهاب أموال الناس بمن تخبطه الشيطان الذي يريد أن يقوم فإن تفكيره تفكير منحرف كتفكير المطروح وعينه تنظر بزيغ إلى أموال الناس كعين المصروع وفيه يلهج حول المال بانحراف كفم المصروع وإذا أراد أن يقوم من كبوته ويترك الربا ويأخذ بالجادة المستقيمة حول المال لا يلبث أن يسقط في الربا كما اعتاد من أكله وصار الابتزاز لمال الناس ملكته، وهذا تشبيه رائع مفزع وهكذا يكونون هؤلاء يوم القيامة. فقد روى الإمام الصادق (عليه السلام) عن الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه قال: لما أسري بي إلى السماء رأيت أقواماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر عليه من عظم بطنه فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس[٢]، وقد ثبت في العلم أن الأرواح الشريرة قد تدخل في الإنسان فتسبب له صرعاً {ذلك} الأكل للربا الذي اعتادوه {بـ} سبب {أنهم قالوا} ليس في أكل الربا بأس فـ {إنما البيع مثل الربا} كلاهما تعامل برضى الطرفين {و} ليس كذلك فمنطقهم غلط فقد {أحل الله البيع} لما فيه من الفوائد {و حرم الربا} لما فيه من المضار، ويكفي أن نلمح إلى ضرر واحد هو أن معطي الربا إما ساقته الضرورة إلى الاقتراض كمرض أو نحوه مما

---

(٢) بحار الأنوار: ج١٠٠، ص١١٦.

أُلجأ للاقتراض برباء فما أقبح أن يستغل الإنسان أخيه في مثل هذا الموقع مما يجدر به أن يساعده ويسعفه، وإما اقترض للتجارة وهذا لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة: الأول أن يخسر والثاني أن لا يربح ولا يخسر وما أقبح في هاتين الصورتين أن يأخذ صاحب المال زيادة بينما خسر العامل في الأول ولم يربح في الثاني والثالث أن يربح، وقد قرر الإسلام المضاربة والاشتراك في المربح فيما يجبر المقترض أن يدفع بمقدار خاص إلى المقرض بينما قد ربح بمقداره وقد ربح أقل وقد ربح أكثر.

{فمن جاءه موعظة من ربه} في تركه أخذ الربا {فانتهى} وتاب {فله ما سلف} فكل ربا أكله الناس بجهالة وعدم علم بحرمته أو قبل الإسلام لا يسترد منهم {و أمره إلى الله} سبحانه لا إلى الناس حتى يقول من أعطاه الربا: ردّ عليّ ما أخذت مني، أو أمره في قبول الله توبته إليه سبحانه {ومن عاد} إلى الربا بعد النهي والإسلام {فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} أبد الآبدين إلا أن يدركهم الله برحمته كما قال سبحانه:(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ)(٣).

[٢٧٧] {يمحق الله الربا} أي ينقصه ويتلفه ويهلكه فما ظن المرابي أنه سبب زيادة أمواله يكون سبباً لهلاكه ونقصانه فإن الربا يسبب غضب الناس وسخطهم على المرابي مما يثير حرباً أو نهباً من الناس أو الحكومات لأمواله فيذهب الأصل والفرع {و يربي} أي يزيد وينمي {الصدقات} فإنه وإن ذهب جزء من المال بالصدقة لكنها تسبب حب الناس والتفافهم وتعاونهم مع المتصدق مما ينجر إلى زيادة أمواله، وهذا مع الغض عن المحق والنماء الخارجين عن الطبيعة مما يشأهما الله سبحانه بلا واسطة عادية {و الله لا يحب كل كفار} كثير الكفر {أثيم} أي مذنب وفي هذا دلالة على أن آكل الربا كفار أثيم.

[٢٧٨] {إن الذين آمنوا} بالأصول الاعتقادية {و عملوا الصالحات} بأن أتوا بالواجبات وتركوا المحرمات {و أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة} تخصيص بعد التعميم لأهميتهما {لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} وقد مر تفسير عدم الخوف وعدم الحزن.

[٢٧٩] {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله} خافوا من عقابه {و ذروا ما بقي من الربا} مما كنتم تطلبونه قبل الإسلام وقد روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: إن الوليد بن المغيرة كان يربي في الجاهلية وقد بقي له بقايا على ثقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت الآية {إن كنتم مؤمنين} بالإسلام حقاً فإن المؤمن هو الذي يأتمر بالأوامر وينزجر بالزواجر.

[٢٨٠] {فان لم تفعلوا} ولم تنقادوا إلى هذا النهي بل أكلتم الربا بعد النهي {فأذنوا بحرب من الله ورسوله} أي اعملوا القتال مع الله ورسوله (صلى الله عليه وآله)، فأكل الربا يكون كمن أعلن الحرب مع الإله والرسول (صلى الله عليه وآله) ، وذلك من أفظع الجرائم، وعاقبته خسران الدين والدنيا، وحكم

---

(٣) سورة النساء: ١١٧.

آكل الربا إنه يؤدب مرتين ثم يقتل في الثالثة كما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام)(٤) {و إن تبتم} ولم تأخذوا الربا {فلكم رؤوس أموالكم} دون الزيادة التي حصلتموها بالربا ولا مفهوم للآية بأنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس المال، بل المراد أن لكم رأس المال فما تبغون بالزيادة {لا تظلمون} الناس بأخذ الزيادة منهم {و لا تظلمون} بالنقصان من رأس المال.

[٢٨١] {وإن كان} فيمن تطلبون منه ـ ممن ذكر أنه يرجع رأس المال ـ {ذو عسرة} بأن كان رأس مالكم الذي تطلبونه عند ذي عسرة لايتمكن من أدائه لعسره وضيقه {فـ} اللازم {نظرة} إلى انتظار وتأخير {إلى ميسرة} أي إلى حال يسار المديون والجملة خبرية معناها الأمر، أي فأنظروه إلى وقت يساره {و أن تصدقوا} على المعسر بما عليه من الدين بأن تجعلوا طلبكم صدقة له {خير لكم} في الدنيا يجلب المحبة والبركة من الله سبحانه وفي الآخرة بالثواب الجزيل {إن كنتم تعلمون} أي إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتميزون ما ينفعكم مما يضركم لعلمتم أن هبة الدين للمعسر خير لكم.

[٢٨٢] {و اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله} فلا تأكلوا الربا ولا تؤاخذوا المعسرين بل تصدقوا عليهم، فإن إتيان الحرام موجب للعقاب والتصدق موجب للثواب {ثم توفى} أي تعطى وافياً {كل نفس ما كسبت} من خير أو شر {و هم لا يظلمون} شيئاً فلا ينقص من أجورهم شيء كما لا يزاد في عذابهم أكثر من استحقاقهم، ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى حكمه وأمره وقضائه وجزائه.

---

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٧٠.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَ تَرْتَابُوا إِلاَ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٣)

[٢٨٣] {يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم} أي تعاملتم بالدين ودان بعضكم بعضاً في بيع أو غيره {بدين} إما تأكيد وإما لدفع توهم أن يكون المراد من المداينة المجازاة كما قال الشاعر «و لا أنت دياني فتجزيني» {إلى أجل مسمى} أي مدة قد سميت في العقد كما لو داينه إلى سنة أو باعه نسيئة إلى ستة أشهر مثلاً {فاكتبوه} أي اكتبوا ذلك الدين في صك وأنه إلى أية مدة لئلا يقع فيه نسيان أو جحود أو خلاف {و ليكتب بينكم} كتاب الدين {كاتب بالعدل} بالحق لا يزيد في المقدار والأجل والوصف ولا ينقص منها {و لا يأب} أي لا يمتنع {كاتب} أي شخص كان من المتعاملين أو غيرهما {أن يكتب} الصك {كما علمه الله} بأن يبخل فلا يكتب، فالتكليف من الله سبحانه وهو في مقابل أن علمه تعالى الكتابة والعلم فلا يثقل أو يبطيء أو يبخل {فليكتب} الكاتب {وليملل} بمعنى ليملأ فإن الإملال والإملاء بمعنى واحد يلقي صيغة الكتابة على الكاتب {الذي عليه الحق} أي المديون حتى يقر على نفسه أولاً، حتى لا يقول زائداً على الحق ثانياً، فالذي له الحق لو أملى كان معرضاً لأن يقول الزيادة {و ليتق الله} الكاتب أو المديون {ربه} فإنه رب له فكيف يخالف أمره {و لا يبخس} أي لا ينقص الكاتب أو المديون {منه} أي من الحق {شيئاً} أما نقص الكاتب فواضح وأما نقص المديون كأن يجعل الدينار والذي هو مقابل ثوب في مقابل ثوبين {فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً} بحيث لم يتمكن من الإملاء {أو ضعيفاً} لجنون أو كبر أو صغر أو نحوها {أو لا يستطيع أن يمل هو} لخرس أو عذر آخر مع عدم السفاهة والضعف {فليملل وليه} أي ولي من عليه الحق {بالعدل} بلا إفراط أو تفريط {و استشهدوا} أي اطلبوا شهادة {شهيدين من رجالكم} على المكتوب لينفع ذلك عند الترافع والمخاصمة لدى التخالف، ولعل قيد من رجالكم لإخراج الكفار {فإن لم يكونا} أي لم يكن الشاهدين

{رجلين} لعدم حضورهما أو عدم إرادة المستشهد {فرجل وامرأتان} يشهدون على الكتابة، أو فليشهد رجل وامرأتان {ممن ترضون من الشهداء} لوثاقتهم أو عدالتهم إذ لا تقبل شهادة من عداهم لدى المخالفة والتراخ، وإنما جعلت المرأتان مكان رجل واحد لأن المرأة لضعف ذاكرتها كما ثبت في العلم الحديث يتطرق إليها من النسيان ما لا يتطرق إلى الرجل، ولذا قال سبحانه: {أن تضل إحداهما} من الضلال أي تخطأ وتشتبه وتنسى {فتذكر إحداهما} التي لم تضل {الأخرى} التي نسيت وضلت، و«أن» إما بمعنى «لئلا» وتكون جملة «فتذكر» منقطعة، أي إن ضلّت تذكر الثانية الأولى، وأما أصلها «إن» بالكسر، صفة لامرأتان، والأول أقرب {و لا يأب} أي لا يمتنع {الشهداء} الذين يراد إشهادهم للدين. وسموا شهداء بمجاز المشارفة. {إذا ما دعوا} لتحمل الشهادة وهذا أمر إيجابي أو استحبابي، أو المراد الأعم من التحمل والأداء.

{و لا تسأموا} أي لا تضجروا أيها المتداينون {أن تكتبوه} أي تكتبوا الدين أو تكتبوا الحق {صغيراً} كان الحق والدين {أو كبيراً} وهذا تأديب لمن يترك كتابة الصغير لعدم الاهتمام به، فكثيراً ما يقع التنازع في الصغير {إلى أجله} أي إلى أجل الدين ومدته، وفيه تنبيه إلى أن الكتابة تبقى إلى الأجل فتنفع هناك، أو المعنى كتابة تتضمن إلى الأجل، فيعين في المكتوب أجل الدين.

{ذلكم} ذا إشارة إلى الكتاب الذي يكتب في المداينة «وكم» خطاب إلى الذين آمنوا {أقسط عند الله} أي أعدل، بمعنى أقرب إلى العدل وإلا فليس في العدل مفاضلة حقيقية {و أقوم للشهادة} فيه تقوم الشهادة التي تؤمن عن الزيادة والنقصان {و أدنى ألا ترتابوا} أي أقرب إلى عدم الريب في المبلغ والأجل فالله يريده وانتم لا تشكون، والشهادة تستقيم، بسبب الكتابة والصك وما ذكر من الكتابة عامة لكل مكان {إلا أن تكون} المعاملة. المفهوم من الكلام. {تجارة حاضرة} معجلة غير مؤجلة كغالب التجارات النقدية التي تجري في الأسواق {تديرونها بينكم} إدارة يد بيد، ومعنى الإدارة المناقلة، فينقل هذا ماله إلى ذاك وينقل ذاك عنه إلى هذا {فليس عليكم جناح} وحرج {ألا تكتبوها} فلا مانع من عدم كتابة التجارة النقدية إذ الكتابة للوثيقة وهنا لا يحتاج إلى الوثيقة {و أشهدوا إذا تبايعتم} فإنه يستحب للإنسان الذي يريد المبايعة أن يأخذ الشاهد، ففي المعاملة كثيراً ما يقع من نزاع وخصام فإذا كان هناك شهادة يقل وطئ النزاع، والآية وإن كانت عامة لفظاً لكن لايعد أن لا يراد بها الإطلاق من المعاملات الجزئية اليومية لعدم تعارف الأشهاد منذ زمان الرسول (صلى الله عليه وآله) {و لا يضار كاتب ولا شهيد} بأن يكلف الكاتب الكتابة ويكلف الشاهد الشهادة في حال يكون حرجاً عليهما وضرراً، كما تعارف الآن عند الحكومات المنحرفة فإنه يحضر الشاهد ويعنت ويضار فإن في مضارتها زهادة للناس عن الكتابة والشهادة {وإن تفعلوا} المضارة بها {فإنه فسوق بكم} أي خروج عن أمر الله سبحانه لسببكم أيها المضارون {و اتقوا الله} فيما أمركم ونهاكم {ويعلمكم الله} مصالحكم فاتبعوه {و الله بكل شيء عليم} وأنتم لاتعلمون وما أجدر بالجاهل أن يتبع العالم، عن علي بن إبراهيم أن في سورة

البقرة خمسمائة حكم وفي هذه الآية الكريمة وحدها خمسة عشر حكماً والآية كما تقرر في العلم الحديث من أعجب الآيات في باب المعاملة.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٤) للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٥) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٦) لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٧)

[٢٨٤] {وإن كنتم} أيها المتداينون المتبايعون {على سفر} أي مسافرين والتعبير بلفظ «على» لركوب المسافر غالباً {و لم تجدوا كاتباً} يكتب الدين والمعاملة {فرهان مقبوضة} تقوم مقام الصك ورهان جمع رهن، وهو اسم للوثيقة ولذا جاءت الصفة بالتأنيث والقبض شرط في صحة الرهن، ولذا وصفه بالقبض {فإن أمن بعضكم} وهو صاحب الحق {بعضاً} وهو من عليه الحق بأن وثق به وأنه يؤدي الدين بدون صك ولا رهن، فأعطاه الدين مجرداً عن الأمرين {فليؤد الذي أؤتمن} أي المديون {أمانته} فلا ينكر ولا يمطل، كفاءً لما رآه أهلاً {و ليتق الله ربه} فإن الله شهيد ويجازي فإن أنكر أو مطل أو بخس كان معرضاً نفسه لعقوبة الله سبحانه {و لا تكتموا} أيها الشهود {الشهادة} التي تحملتموها {و من يكتمها} أي يخفي الشهادة فلا يحضر لأدائها أو يؤديها على خلاف الواقع {فإنه آثم قلبه} فقد عزم القلب على الكتمان وأطاعته الجوارح واللسان ولأن الكتمان أنسب إلى القلب لكونه في محل مكتوم {و الله بما تعملون} من إخفاء الشهادة وإبدائها {عليم} فلا تفعلوا ما يوجب عقابه وسخطه.

[٢٨٥] {لله ما في السماوات وما في الأرض} فما تعاطونه من الأملاك ليست لكم إلا مجازاً وإنما هي ملك له سبحانه فاعملوا فيها حسب ما أمركم ولا تخالفوا أمر المالك الحقيقي {و إن تبدوا} أي تظهروا {ما في أنفسكم} بما تعلمونه ويخفى على غيركم {أو تخفوه} فتكتموه {يحاسبكم به الله} فإن جميع الأعمال والأقوال والأفكار تحت المحاسبة، أو أن الإبداء والإخفاء لما في النفس محسوب

عليهما، وهذا العموم للتناسق مع إبداء الشهادة وكتمانها {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} حسب ما تقتضيه الحكمة البالغة فالغفران والشفاعة ليسا اعتباطاً وإنما ينصبان على المحل القابل {و الله على كل شيء قدير} من المغفرة والعقاب ولا يخفى أن العذاب على ما في النفس لا ينافي ما دل على عدم العقاب، على العزم على المعصية لاختلاف المعاصي، واختلاف أنواع العقاب فلا شبهة في أن من يعزم على المعاصي وإن لم يفعلها أبعد عن قرب الحلال ممن لا يعزم إطلاقاً، وهذا البعد هو نوع من العذاب أو يجمع بنحو ذلك.

[٢٨٦] وهنا يرجع السياق إلى ذكر التوحيد والنبوة والشرائع جملة في لباس أنها لا تكلف الناس فوق الطاقة وسؤال المغفرة والعفو لتكون فذلكة للسورة {آمن الرسول} محمد {بما أنزل إليه من ربه} فهو أول مؤمن بما أنزل إليه وليس كرؤساء الأديان المفتعلة والملوك والحكام الذين لا يشملهم القانون {و المؤمنون كل} أي كل واحد منهم {آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله} فليس المؤمن أن يقتنع بجانب واحد من جوانب الإسلام كما هو كثير في تابعي الأحزاب والمبادئ حيث أن ذا النشاط المتفايض منهم يقتنع منه بجانب واحد وإن ترك سائر الجوانب فإن لسان حال المؤمنين {لا نفرق بين أحد من رسله} فلسنا كاليهود الذين لا يعترفون بالمسيح (عليه السلام) ونبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) ولا كالنصارى الذين لا يعترفون بنبي الإسلام، فلا تكون كمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض {و قالوا سمعنا} آيات الله وأحكامه {و أطعنا} أوامره ونواهيه لا كاليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا، يقولون {غفرانك} أي نطلب مغفرتك {ربنا} نعلم أن {إليك المصير} فاغفر لنا حتى نكون في ذلك اليوم سعداء.

[٢٨٧] إن الأحكام التي سلفت في السورة وفي غيرها ليست مما لا يطاق فإنه {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها} فإن أوامره ونواهيه مستطاعة للمكلف وليس في الدين من حرج، فلا يظن أحد أن الإيمان السابق ذكره في «والمؤمنون كل آمن بالله» يوجب مشقة وعنتاً وإرهاقاً {لها} أي للنفس {ما كسبت} من الحسنات فالجزاء الحسن يجزى به من أحسن {وعليها} أي على النفس ضرر {ما اكتسبت} من الآثام والسيئات ولعل في مجيء الكسب من بابين «كسب» و«أكتسب» إفادة أن الطاعة طبيعية والمعصية تؤتي بالتكلف إذ للفظة الاكتساب ظلالاً يفيد التعب والغضب بخلاف الكسب وتؤيده قاعدة «زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى» وهناك يتوجه المؤمنون إلى الله داعين سائلين {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} بلا نسيان وإنما تصح المؤاخذة فيهما لغلبة كون مقدماتهما اختيارية وما ينتهي إلى الاختيار يكون بالاختيار {ربنا ولا تحمل علينا إصراً} أي ثقلاً فإن بعض التكاليف قد توجب ظروفها ثقلاً وعنتاً، فالمؤمن يسأل أن يجنبه الله سبحانه مثل هذا الثقل {كما حملته على الذين من قبلنا} فإنهم بلجاجتهم استحقوا تحميل الثقل كما تقدم في قصة بقرة بني إسرائيل وكما قال سبحانه:

(فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)(٥) {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به} وإن كان مقدوراً لنا فإن عدم الطاقة ليس بمعنى عدم القدرة حتى يقال: إن الله لا يكلف غير المقدور فما وجه هذا الدعاء؟ {و اعف عنا} ذنوبنا {واغفر لنا} خطايانا أي استرها ولا تبدها {و ارحمنا أنت مولانا} سيدنا والأولى بالتصرف فينا {فانصرنا على القوم الكافرين} حتى نغلب عليهم في الحكم كما نغلب عليهم في الحجة.

سورة آل عمران

مدنية/آياتها (٢٠١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الم (٢) اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٣) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ (٤) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٥) إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي
السَّمَاءِ (٦) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٧) هُوَ
الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ
فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ (٨) رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٩) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ
لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٠)

سورة آل عمران:

سميت بذلك لاشتمالها على لفظة آل عمران وقد نزلت بالمدينة.

[١] {بسم الله الرحمن الرحيم} مرّ تفسيرها في أول سورة الحمد

[٢]. {آلم} تقدم ما يحتمل أن يكون تفسيراً له.

[٣] {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} فليس له شريك وهو الحي الذي لايموت وإن كانت الحياة بالنسبة إليه تعالى تخالف الحياة بالنسبة إلينا فإن حياتنا غير ذواتنا وإنما هي صفة قائمة بنا بخلاف الحياة فيه سبحانه فإنه عين ذاته والقيوم هو القائم على كل نفس بما كسبت وعلى كل شيء

---

(٥) سورة النساء: ١٦١.

[٤] {نزل عليك} يا رسول الله {الكتاب} أي القرآن {بالحق} لابالباطل فإن الإنزال قد يكون بالباطل وقد يكون بالحق {مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة} على موسى (عليه السلام) {و الإنجيل} على عيسى (عليه السلام) .

[٥] {من قبل} إنزال القرآن عليك، وكل هذه الكتب {هدى للناس} فإنها تهديهم من الظلمات إلى النور ومن الباطل إلى الحق ومن الضلال إلى الرشاد {و أنزل الفرقان} الفارق بين الحق والباطل وهو أعم من الكتب السابقة وسائر ما أنزل على أنبياء الله ورسله {إن الذين كفروا بآيات الله} بحجج الله ودلالاته {لهم عذاب شديد} في الدنيا بالفوضى والهرج والمرج والمشاكل كما قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً)(٦) وفي الآخرة بالعقاب {و الله عزيز} له العزة والقدرة بأن يفعل ما يشاء {ذو انتقام} ينتقم ممن حادّه وعصاه.

[٦] {إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء} فلا يظن عاص أنه يخفى على الله سبحانه، فإنه يعلم كل شيء في الكون حتى وساوس القلوب وهواجس الصدور.

[٧] {هو الذي يصوركم في الأرحام} أي يعطيكم الصورة في بطون أمهاتكم {كيف يشاء} من رجل وامرأة وجميل وقبيح وقصير وطويل وغيرها فكيف يخفى عليه شيء وهو يفعل مثل هذا الفعل الدقيق في ذلك المحل المظلم {لا إله إلا هو} فهو وحده إله الكون وخالقه {العزيز} في سلطانه {الحكيم} فما يفعل شيئاً عبثاً بل يفعل ما يفعل بالحكمة.

[٨] {هو الذي أنزل عليك} يا رسول الله {الكتاب} أي القرآن {منه} أي قسم من الكتاب {آيات محكمات} غير متشابهات فالمفاد منها واضحة لا يخفى على أهل اللسان كقوله سبحانه (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)(٧) {هن} أي تلك الآيات المحكمات {أم الكتاب} أي أصله الذي يرجع إليه لدى الشك والخصام والجدال.

{وأخر} أي آيات أخر {متشابهات} والمتشابه هو الذي يحتمل وجهين أو وجوهاً مما سبب عدم إدراك الناس كلهم لها، من تشابه، وإنما يؤتى به إما امتحاناً حتى يعرف المؤمن من المنافق أو لتقريب المطلب إلى أذهان الناس الذين لا يدركون الحقائق ككثير من آيات الصفات ونحوها كقوله سبحانه:(إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)(٨) حيث أريد التفهيم من أن المؤمنين ينظرون إلى رحمة الله، أو كقوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)(٩) أو لأن المطلب دقيق لا تتحمله بعض العقول كآيات الجن والشيطان مما لا يتحملها عقل من إلف المادة فيشتبه الأمر عليه أو لأنه جيء به لاعتبار كلامي فاشتبه الأمر نحو (نَسُوا اللَّهَ

---

(٦) سورة طه: ١٢٥.

(٧) سورة الإخلاص: ٢.

(٨) سورة القيامة: ٢٤.

(٩) سورة البقرة: ٣٠.

فَنَسِيَهُمْ)[١٠] أو غير ذلك، والمتشابه مما لا بد منه في الكلام الراقي كما لا يخفى بأدنى تأمل {فأما الذين في قلوبهم زيغ} أي ميل عن الحق وانحراف إما جهلاً أو عناداً {فيتبعون ما تشابه منه} اتباعاً على خلاف المراد منه ويوجهون المتشابه حسب أهوائهم ومشتهياتهم كما يقول القائل بالتجسم من «إلى ربها ناظرة» وبالجبر من (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)[١١] وبمعصية الأنبياء (عليهم السلام) من (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)[١٢] ويكون الإسلام خاصاً بالعرب من (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ)[١٣] وهكذا {ابتغاء الفتنة} أي لأجل تفتين الناس وإضلالهم {وابتغاء تأويله} أي لأجل أن يكون له مجال في تأويل الكلام على غير المراد منه ليطابق هواه ومشتهاه {وما يعلم تأويله} التأويل هو ما يؤول وينتهي إليه الكلام فمثلاً ظاهر «إلى ربها ناظرة» إنهم ينظرون إلى الله لكن هذه الجملة تؤوّل إلى معنى أنهم ينظرون إلى رحمة الله ولطفه وثوابه، كما يقال في العرف «إني أنظر إلى العقل وهو يسيّر الإنسان» إنه لا يريد النظر بالعين وإنما عرفان ذلك {إلا الله} فهو سبحانه يعلم المراد من كلامه {والراسخون} أي الثابتون {في العلم} الذين لهم اطلاع على المعلومات وبأساليب الكلام وبما يدل عليه العقل والشرع وهذا ليس ببدع فإن القوانين المدنية لا يعرفها إلا من درسها وأتقنها وأساليب الكلام العربي لا يعرفها إلا من أتقن الأدب والبلاغة وهكذا، إن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه في حال كونهم {يقولون آمنا به} أي بالمتشابه كما آمنا بالمحكم {كل} من المحكم والمتشابه {من عند ربنا} فإذا لم يظهر المعنى في بادئ النظر لا ينكرون ولا يقولون بالتناقض، فإنهم جمعوا بين فضيلتي العلم بالتأويل والإذعان بصحة المتشابه بخلاف الجهال فإنهم يعترضون على المتشابه أولاً ويفسرون حسب أهوائهم ثانياً، وهكذا نجد الآن في العرف العالم الورع يجمع بين الفضيلتين والجاهل يشتمل على الرذيلتين {وما يذكر} أي يتذكر ويرد المتشابه إلى المحكم وإلى ما دل من العقل والنقل {إلا أولوا الألباب} أي أصحاب العقول الحصيفة، ثم إنه ورد في الأحاديث أن المراد بالراسخين النبي والأئمة (عليهم السلام) ولا يخفى أنهم من أجلّ مصاديق الراسخين وذلك هو المراد لا الانحصار.

[٩] إن الراسخين في العلم يلتجؤون إلى الله سبحانه قائلين {ربنا لا تزغ قلوبنا} أي لا تملها عن الحق وإنما نسب الزيغ إليه سبحانه لأنه هو الذي هيأ الأسباب ليمتحن عباده فترك الإنسان ـ وعدم اللطف به ـ حتى يقع فريسة الشيطان من صنع الله سبحانه كما يقال أن الملك أفسد الرعية لا يراد أنه أفسدهم وإنما يراد تركهم حتى يفسدوا، ولا يخفى الفرق بينه سبحانه وبين الملك لرعيته فإن الله حيث خلق الدنيا للاختبار لا بد وأن يهيئ الوسيلتين ليظهر المطيع من العاصي كما قال: (كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ

---

(١٠) سورة التوبة: ٦٧.

(١١) سورة الرعد: ٣٤.

(١٢) سورة طه: ١٢٢.

(١٣) سورة الزخرف: ٤٥.

وَهَؤُلاءِ)[١٤] بخلاف الملك فإنه لا يحق له أن يفسد الرعية حتى بتركهم وما يشاءون فإنه يأمر بالصلاح والإصلاح كما أن الله تعالى يسبل النعم على الجُنات ولايعاقبهم عقوبة ظاهرة في الدنيا، وذلك ليس جائز للملوك فإنه يجب إيقاف الجاني عند حده وإجراء العقاب عليه ثم إن الإنسان مهما كان من الرسوخ في العلم فإنه معرض للزلة كما زل «بلعم» قال سبحانه (نبأ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ)[١٥] ولذا يدعو الراسخون ربهم سبحانه أن لا يقطع عنهم لطفه الخاص ولا يتركهم ليلعب بهم الشيطان كما يشاء، إذ {بعد إذ هديتنا} إلى دينك {وهب لنا من لدنك} من عندك {رحمة} ولطفاً نثبت بها على دينك وطاعتك {إنك أنت الوهاب} الكثير الهبة لمن تشاء بما تشاء.

[١٠] {ربنا إنك جامع الناس} تجمعهم {ليوم لا ريب فيه} هو يوم القيامة الذي لا شك فيه عند ذوي العقول وإن شك فيه أناس لانصيب لهم من العلم والمعرفة وقد تقدم وجهه في أول سورة البقرة {إن الله لا يخلف الميعاد} أي الوعد الذي وعده أنبياءه والبشر بيوم القيامة، فلا تزغ قلوبنا حتى نكون ذلك اليوم من المطرودين أو هذا إظهار من الراسخين بالاعتراف بالبعث وإنهم جمعوا بين فضيلتي الاعتراف بالمبدأ والمعاد.

---

(١٤) سورة الإسراء: ٢١.

(١٥) سورة الأعراف: ١٧٦.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٢) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٣) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ (١٤) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٥) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٦)

[١١] {إن الذين كفروا} من الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون المتشابه وغيرهم من سائر الكفار {لن تغني عنهم أموالهم} كي يعطوها فينجون من عذاب الله سبحانه كما تنفع الفدية في الدنيا {ولا أولادهم من الله} أي من عذاب الله وسخطه {شيئاً} فلا يتمكن أولادهم أن يقفوا ليمنعوا عنهم العذاب {وأولئك} الكفار {هم وقود} الوقود الحطب وكل ما يوقد به النار {النار} يوم القيامة تتقد النار بأجسامهم كما تتقد النار بالحطب والنفط ونحوها.

[١٢] {كدأب آل فرعون} الدأب العادة، أي عادة هؤلاء الكفار في التكذيب بك وبما أنزل إليك كعادة آل فرعون الذين كذبوا الرسل {و} كعادة {الذين من قبلهم} من سائر الكفار الذين كانوا يكفرون بآيات الله ويكذبون أنبياءه {كذبوا} جميعاً {بآياتنا} أي بدلائلنا الدالة على التوحيد وسائر الأصول {فأخذهم الله بذنوبهم} أي بسبب عصيانهم ومعاصيهم، ومعنى الأخذ العقاب أي عاقبهم، كقوله (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ)[١٦] {والله شديد العقاب} فليس عقابه كعقاب سائر الناس، وإنما (نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ)[١٧].

[١٣] {قل} يا رسول الله {للذين كفروا ستغلبون} أي بعد قليل يكونون مهزومين إما في الدنيا بغلبة الإسلام، كما صار وكما أخبر حيث إن الإسلام غلبهم وأخذ بلادهم {وتحشرون إلى جهنم} يوم القيامة، وإما في الآخرة بمعنى أنكم بعد قليل تهزمون أمام أمر الله سبحانه، ويقبضكم ملك

---

(١٦) سورة هود: ١٠٣.

(١٧) سورة الكهف: ٣٠.

الموت الذي وكل بكم، وبعد ذلك تحشرون إلى جهنم يوم القيامة {وبئس المهاد} أي بئسما مهد لكم أو ما مهدتم لأنفسكم.

[١٤] ولما بين سبحانه أن الكفار سيغلبون بين لذلك شاهداً محسوساً في قصة بدر حيث كان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً والكفار ألف رجل ولم يكن للمسلمين من العتاد إلا شيئاً ضئيلاً بينما كان الكفار بأكمل السلاح ومع ذلك فقد غلب المسلمون عليهم بنصر الله سبحانه {قد كان لكم} أيها المسلمون أو أيها الكفار {آية} أي علامة على صدق الرسول (صلى الله عليه وآله) وإن الله ينصره ويهزم الكفار {في فئتين} أي جماعتين جماعة المسلمين وجماعة الكفار {التقتا} من الملاقاة إذ اجتمعتا في بدر {فئة تقاتل في سبيل الله} وهم المسلمون {و} فئة {أخرى كافرة} وهم المشركون الذين أتوا من مكة {يرونهم} أي يرى المسلمون الكفار {مثليهم} أي ضعف أنفسهم {رأي العين} فلم يكن ذلك خيالاً وإنما واقعاً فإن الكفار في الواقع كانوا أكثر، ومع ذلك فقد غلب المسلمون، ولعل النكتة في ذكر ذلك بيان أن المسلمين غلبوا مع أنهم كانوا يعلمون بزيادة الكفار عليهم وإن ذلك يدل أن الله نصرهم وإلا فإن الجيش إذا علم أن العدو أكثر منه وهن في عضده ويسبب ذلك انهزامه في أكثر الأحيان، وفي الآية أقوال أخر مذكورة في التفسيرات {والله يؤيد بنصره من يشاء} أي يقوي بنصره فلا يضرهم قلة عددهم وعدتهم {إن في ذلك} المذكور وهو غلبة المسلمين على المشركين مع أن الكفار كانوا ثلاثة أضعافهم {لعبرة} أي اعتبار وهي بمعنى الآية وإنما سميت الآية عبرة لأنها تعبر بالإنسان من الجهل والغفلة إلى العلم والتذكير {لأولي الأبصار} أي أصحاب العقول، وليس المراد بالبصر النظر بالعين وإنما النظر بالقلب كما يقال فلان بصير بالأمور أي يعرفها ويدركها.

[١٥] وهنا يتساءل الإنسان ماذا صرف الكفار عن الحق وهم يرونه؟ ويأتي الجواب إن الذي صرفهم هو جمال الدنيا ومالها كما قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) «لكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها»[١٨] {زين للناس حب الشهوات} أي أن حب الإنسان للمشتهيات والملذات سبب لهم أن تتزين الدنيا في نفوسهم فيطلبون اللذائذ ولو في المحرمات ولم يذكر الفاعل، لأنه ليس بمقصود وقد تقرر في علم البلاغة أن مقتضاه أن لايذكر الفاعل أو المفعول حيث لم يكن مقصوداً {من النساء} بيان «الشهوات» {والبنين} فإن حب الأولاد يسبب إطاعتهم والتحفظ عليهم ولو بذهاب الدين {والقناطير المقنطرة} القناطير جمع «قنطار» وهو ملء مسك ثور ذهباً وإنما سمي قنطاراً لأنه يكفي للحياة فكأنه قنطرة يعبر بها مدة الحياة، والمقنطرة بمعنى المجتمعة المكدسة كقولهم دراهم مدرهمة ودنانير مدنرة {من الذهب والفضة} فإن الإنسان بحبه للأموال يعصي الله في جمعه وفي عدم إعطاء حقوقه {والخيل} عطف على النساء، والخيل الأفراس {المسوّمة} من سوم الخيل التي علمها ولا تُعلم إلا

---

(١٨) نهج البلاغة: خطبة٣.

الجيد الحسن منها {والأنعام} جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم {والحرث} أي الزرع فهذه كلها محببة للناس، لكن {ذلك} كله {متاع الحياة الدنيا} أي ما يستمتع به في الدنيا ولا تنفع الآخرة إلا إذا بذلت في سبيل الله ـ كل حسب بذله ـ {والله عنده حسن المآب} المرجع أي أن المرجع الحسن في الآخرة منوط بالله سبحانه فاللازم أن يتزهد الإنسان في الملذات ولا يتناول المحرم منها رجاء ثواب الله ونعيمه المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال، فلا تسبب هذه المشتهيات عدول الإنسان عن الحق إلى الباطل وعن الرشاد إلى الضلال.

[١٦] {قل} يا رسول الله للناس الذين زين لهم حب الشهوات {أؤنبئكم} أي هل تريدون أن أخبركم {بخير من ذلكم} أي بأحسن من هذه الشهوات، و«كم» خطاب للناس {للذين اتقوا} المحرمات وعملوا حسب أوامر الله سبحانه {عند ربهم} في الآخرة {جنات تجري من تحتها الأنهار} أي من تحت أشجارها ونخيلها وقصورها {خالدين فيها} فإنهم يسكنون الجنة أبد الآبدين لا زوال لهم ولا تحويل {وأزواج مطهرة} أي نساء طاهرة من الأقذار الظاهرية كالحيض والوساخة، والأقذار الباطنية كسوء الخلق والحقد والعداوة {و} أكبر من كل ذلك {رضوان من الله} فإن الله راض عنهم ومتى شعر الإنسان برضى الله سبحانه منه تنعم بأفضل نعمة نفسية كما لو علم فرد من الرعية أن الملك يحبه ويرضى عنه {والله بصير بالعباد} خبير بأفعالهم وأعمالهم فيجازيهم حسب ما يفعلون.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٧)
الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٨) شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ
لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(١٩) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠) فَإِنْ
حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ
ءأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
(٢١) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٣)

[١٧] ثم وصف سبحانه المتقين الذين سبق ذكرهم بقوله «للذين اتقوا» فالمتقون هم {الذين يقولون ربنا إننا آمنا} أي صدقنا بك وبرسلك وبما أمرت ووعدت {فاغفر لنا ذنوبنا} أي تجاوز عما صدر منا من الخطايا {وقنا} أي احفظنا من «وقى» «يقي» بمعنى حفظ {عذاب النار} حتى لا نكون من أهلها.

[١٨] {الصابرين} صفة أخرى للمتقين فأولئك هم الصابرون في المصائب وعند الطاعة، ولدى المعصية {والصادقين} في نياتهم وأقوالهم وأفعالهم {والقانتين} من القنوت بمعنى الإطاعة والخضوع {والمنفقين} لأموالهم في سبيل الله سبحانه {والمستغفرين} الذين يطلبون غفران ذنوبهم {بالأسحار} جمع سحر وهو ما يقرب من طلوع الفجر آخر الليل.

[١٩] ويناسب السياق هنا الإشارة إلى صفات الباري عز اسمه حيث تقدم ذكر من اتقى وأوصاف المتقين الذين يعملون لله سبحانه {شهد الله أنه لا إله إلا هو} وشهادة الله لفظية وواقعية فإن الشهادة إظهار المطلب باللسان وقد أظهر الله سبحانه وحدته وسائر صفاته بما هو أقوى وأثبت وأولى من اللفظ، وهو خلق المصنوعات التي تشهد جميعها بصفاته كما قال الشاعر «وفي كل شيء له آية.... تدل على أنه واحد» وإنما تشهد المصنوعات على الوحدة لأنه لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا فعدم الفساد دليل الوحدة ـ كما تقرر في علم الكلام ـ {والملائكة} شهدوا بالوحدانية شهادة لفظية وحقيقية

{وأولوا العلم} أصحاب العلم الذين يدركون، لا كل من يدعي العلم، فإنه من ينظر إلى الكون نظر عالم معتبر لا بد له من الإذعان بالوحدانية {قائماً بالقسط} أي في حال كونه سبحانه قائماً بالعدل، فإن القسط بمعنى العدل، ومعنى قيامه سبحانه بالعدل أنه يفعل ما يفعل بالعدل فخلقه، وتقديره، وتشريعه، كل بالعدل ومعنى العدل الاستواء، مقابل الظلم الذي هو الاعوجاج والانحراف، فمثلاً جعل الشمس في السماء عدل لأنها تنير وتشرق وتقيم المجموعة الشمسية بينما عدمها انحراف وظلم، وكذلك تقدير هذا غنياً وذاك فقيراً، وهذا رئيساً وذاك مرؤوساً بالعدل، وما يشاهد في ذلك من الانحراف فإنه ليس من التقدير وإنما من سوء اختيار الناس، وكذلك تشريع الصلاة واجبة، والخمر محرمة بالعدل.

يقال أن رجلاً سأل كسرى عن سبب عدله قال: لعدة أسباب منها أني رأيت في الصحراء يوماً كلباً كسر رجل غزال، فما لبث أن رماه إنسان بحجر فكسر رجله فلم يمض على الرجل إلا برهة إذا بفرس رفسه فكسر رجله، فلم تمض على ذلك لحظات إلا بالفرس عثر فانكسرت رجله، وهناك علمت أن الظلم عاقبته وخيمة.... والإنسان إذا لم يعرف الصلاح والعدل في بعض الأشياء فليس له أن يعترض، والحال أنه يجهل أكثر الأشياء، فهو كمن يعترض على أدوية وصفها الطبيب وهو لا يعرف من الطب شيئاً، ولفظة «قائماً» فيها إيماءة لطيفة، فإن القائم يشاهد ما لا يشاهده القاعد، إذ هو مسيطر مشرف {لا إله إلا هو} تكرار للتأكيد، فإن العالم قبل الإسلام كان مرتطماً في أوحال الشرك حتى جاء الإسلام فأظهر التوحيد وجدد ما محي من سنن الأنبياء (عليهم السلام) وإرشادهم حول المبدأ تعالى {العزيز} في سلطانه {الحكيم} الذي يفعل كل شيء عن حكمة وعلم.

[٢٠] وبعدما تقرر التوحيد والعدل أتى دور الدين الذي أرسله الله سبحانه إلى العباد {إن الدين عند الله الإسلام} والدين هي الطريقة التي تؤمن السعادة للبشر دنياً وآخرة، إنه عند الله الإسلام، وإن كان عند غيره اليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها، فإن الله سبحانه لم يرسل إلا الإسلام والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً فإنه عبارة عن تسليم منهج الأعمال إلى الله الذي خلق الكون وهو أعلم بالنظام السماوي له الذي إن تبعه البشر عاش سعيداً ومات حميداً، وقد ذكرنا سابقاً أن الاختلاف بين الأديان السماوية الواقعية في شرائط ومزايا لا في الجواهر والأصول {وما اختلف الذين أوتوا الكتاب} أي ليس اختلاف أهل الكتاب بعضهم مع بعض وجميعهم مع المسلمين {إلا من بعد ما جاءهم العلم} فعرفوا الصحيح من السقيم والحق من الباطل، وإنما اختلفوا {بغياً} أي حسداً {بينهم} فلم يقبل اليهود أن يرضخوا لعيسى (عليه السلام) حسداً، ولم يقبل النصارى أن يؤمنوا بنبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) حسداً، كما قال سبحانه (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ)[١٩] {ومن يكفر بآيات الله} فلم يؤمن بها فلا يظن أنه ربح وتهنأ بدنيا باقية بل خسر وذهبت دنياه وآخرته {فإن الله سريع الحساب}

---

(١٩) سورة النساء: ٥٥.

يحاسب الكفار في الدنيا بأنواع من البلايا والمصائب كما قال (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً)[٢٠] وفي الآخرة بما اقترفوا من الكفر والآثام، والآخرة قريبة جداً فإن «من فاته اليوم سهم لم يفته غداً» قال الشاعر:

ألا إنما الدنيا كمنزل راكب

أناخ عشياً وهو في الصبح راحل

[٢١] {فإن حاجوك} يا رسول الله وجادلوك في أمر التوحيد بعد وضوح الحجة {فقل} لهم {أسلمت وجهي لله} فأنا لا أعبد إلا الله سبحانه لاأتخذ له شريكاً، وإسلام الوجه كناية عن الإسلام المطلق إذ تسليم الوجه إلى نحو يدل على تسليم القلب وسائر الجوارح {ومن اتبعن} أي الذين اتبعوني هم أيضاً أسلموا وجوههم لله فقط دون غيره {وقل} يا رسول الله {للذين أوتوا الكتاب} أي أعطوا الكتاب السماوي من اليهود والنصارى والمجوس {و} قل لـ {الأميين} من المشركين الذين لاكتاب لهم وسموا أميين إما لجهلهم نسبة إلى الأم وإما لأنهم من أهل مكة ـ أم القرى ـ {أأسلمتم} أي هل أسلمتم وجوهكم لله وحده ـ بلا جدال ولا نقاش معهم بعد ما تمت عليهم الحجة ـ {فإن أسلموا} وتشرفوا بدين الإسلام {فقد اهتدوا} إلى الحق وإلى طريق مستقيم {وإن تولوا فإنما عليك البلاغ} أن تبلغهم الإسلام وليس عليك إجبارهم حتى لايتولوا وحتى لا يعرضوا {والله بصير بالعباد} لا يفوته شيء من أعمالهم فهو يجازيهم بكفرهم وميثاقهم كما يجزيهم على إيمانهم وإطاعتهم.

[٢٢] ثم بين سبحانه أن أهل الكتاب كفروا بالله قديماً وقتلوا الأنبياء (عليهم السلام)، تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) أن لا يضيق صدره بتكذيبهم ولجاجتهم {إن الذين يكفرون بآيات الله} فلا يقبلونها بعد وضوحها وعلمهم بها {ويقتلون النبيين بغير حق} فإن قتل النبي مطلقاً ليس بحق وإنما يأتي القيد إفادة لأنه لاحجة لهم في قتل الأنبياء (عليهم السلام) حتى أنه ليس هناك حق مدعى أيضاً {ويقتلون الذين يأمرون بالقسط} أي بالعدل {من الناس} فإن أهل الظلم والباطل الذين تتمثل فيهم القوة غالباً يقتلون من ينهاهم عن ذلك ويأمر بالقسط والعدل {فبشرهم بعذاب أليم} وكلمة البشارة استهزاءً أو بعلاقة استعمال الضد في الضد كتسمية الزنجي بالكافور والأعمى بالبصير، أو للمقابلة نحو (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المتَّقِينَ)[٢١]، فإن المؤمن يبشر بالثواب والكافر يبشر بالعقاب.

[٢٣] {أولئك الذين حبطت أعمالهم} الخيرية فإن لكل إنسان أعمال خيرية وإن كان كافراً، ومعنى حبط العمل بطلانه وعدم إفادته {في الدنيا} فإن كفرهم سبب هدر دمهم فعملهم الخير لم ينفعهم في حقن دمهم أو أعمال الخير التي تدفع البلايا والآفات لا تنفع مع الكفر والانحراف

(٢٠) سورة طه: ١٢٥.

(٢١) سورة البقرة: ١٩٥.

{والآخرة} فلا تفيدهم أعمالهم الحسنة ثواباً كما قال سبحانه (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً)[٢٢] {وما لهم} أي ليس لهم {من ناصرين} ينصرونهم من عذاب الله وسخطه.

---

(٢٢) سورة الفرقان: ٢٤.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٥) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٢٦) قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٧) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٨) لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٩) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٠)

[٢٤] {ألم ترى} يا رسول الله، ومعناه إفادة العلم بهذا الاستفهام {إلى الذين أوتوا} أعطوا {نصيباً من الكتاب} أي بعضاً منه لأنهم بتحريفهم الكتاب قد فقدوا بعضه كما قال سبحانه (وَنَسُوا حَظاًّ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)[٢٣] {يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم} يدعوهم الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى كتاب الله ليجعل حكماً بينهم وأن محمداً (صلى الله عليه وآله) حق أم لا فقد كان في التوراة والإنجيل صفاته (صلى الله عليه وآله) ، ولذا كان يدعوهم إلى تحكيم كتابهم في هذا الأمر لكنهم لم يقبلوا {ثم يتولى فريق منهم} أي يعرض عن تحكيم الكتاب وإنما قال فريق لأن بعضهم دخل في الإسلام بعدما تمت له الدلالة والإرشاد كعبد الله بن سلام وغيره {وهم معرضون} عن الحق وعن كتابهم وفي بعض الأحاديث أن الآية نزلت في مسألة زنا وقعت بين يهودي ويهودية وكان حكمهما الرجم في التوراة ورجعوا إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) لعله يحكم بغير ذلك فحكم الرسول بينهم بما في التوراة فكرهوا ذلك.

[٢٥] {ذلك} الإعراض عن كتابهم وعن أوامر الله سبحانه {بـ} سبب {أنهم} أمنوا العقوبة بما لفقوه من الكذب حيث {قالوا لن تمسنا النار} أي نار جهنم على فرض كفرنا وعصياننا {إلا أياماً معدودات} سبعة أيام أو أربعين يوماً وهذه المدة القليلة فلا ينبغي ترك الشهوات والرئاسة لأجلها

(٢٣) سورة المائدة: ١٤.

{وغرهم} أي خدعهم {في} باب {دينهم ما كانوا يفترون} أي الذي افتروا ونسبوه إلى الدين من أن النار أيام معدودة فقط خدعهم وغرهم.

[٢٦] {فكيف} حالهم إذا انكشف غرورهم {إذا جمعناهم ليوم} القيامة الذي {لا ريب فيه} أي ليس محل ارتياب وشك {ووفيت كل نفس ما كسبت} أي يعطى كل إنسان جزاءه وافياً غير منقوص {وهم لا يظلمون} بل يجزون على حسب أعمالهم.

[٢٧] وهنا يتوجه السياق إلى كون الملك لله فليس لأهل الكتاب أن يحسدوا الرسول والمسلمين فيما أوتوا من حول وطول وعزة وملك، وفي بعض الأحاديث أن الآية نزلت بعد ما بشر الرسول المسلمين بأنهم يفتحون ملك فارس والروم، فاستهزأ الكفار بذلك وقالوا أنى يكون لمثل هؤلاء أن يسيطروا على تلك الدولتين العظيمتين {قل} يا رسول الله {اللهم} أي يا الله، والميم بدل عن حرف النداء {مالك الملك} مالك منصوب على أنه مناد مضاف أي يا مالك الملك فكل شيء لك وحدك لا شريك وملك من عداك إنما هو مجازي اعتباري {تؤتي} أي تعطي {الملك من تشاء} أن تعطيه {وتنزع الملك ممن تشاء} أن تنزعه من غير فرق بين أن يكون الملك سلطاناً أو ملكاً لشيء كالدار والعقار {وتعز من تشاء} أن تعزه عزة ظاهرية أو باطنية بالإيمان والطاعة {وتذل من تشاء} أن تذله {بيدك الخير إنك على كل شيء قدير} فتقدر على الإعطاء والمنع وأن تعز وتذل.

[٢٨] {تولج} أي تدخل {الليل في النهار} فيأخذ الليل مكان النهار، فيما ينقص اليوم ويزيد الليل، أو فيما إذا جاء الليل وذهب النهار، وهو كناية، إذ ليس الإدخال حقيقة {وتولج النهار في الليل} بأحد المعنيين السابقين {وتخرج الحي من الميت} كما يخرج النبات الحي من الحب الميت والأرض الميتة، أو يخرج الجنين الحي من الأم الميتة كما قد تموت الأم ويخرج الولد منها حياً {وتخرج الميت من الحي} كما يخرج الحب الميت من النبات الحي والبيضة الميتة من الدجاجة والولد الميت من المرأة الحية إذا مات الجنين في بطنها، وفي التأويل إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن {وترزق من تشاء} من عبادك وخلقك {بغير حساب} أي بغير تقتير كما يقال فلان ينفق بغير حساب، أو بلا حساب من المنفق عليه وإن كان كل شيء عنده تعالى بحساب.

[٢٩] وحيث ثبت أن الملك بيد الله والعزة والذلة منه فـ {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء} بأن يصادق المؤمن الكافر بزعم أنه ينفعه لأن بيد الكافر الملك أو أنه يسبب عزته وشوكته {من دون المؤمنين} أي من دون أن يتخذ المؤمنين أولياء بل اللازم أن يتخذ المؤمن المؤمن ولياً، ويتخذ من الكافر عدواً {ومن يفعل ذلك} الإتخاذ للكافر ولياً {فليس من الله في شيء} أي ليس ذا قدر عند الله سبحانه {إلا أن تتقوا منهم تقاة} أي تخافوا من الكفار فلا بأس باتخاذهم أولياء تقية {ويحذركم الله نفسه} أي يخوفكم الله من نفسه فإن من يتخذ الكافر ولياً يشمله عقاب الله سبحانه {وإلى الله المصير} أي المرجع فمن عصاه يجازيه بالنار والعذاب.

[٣٠] {قل} يا رسول الله للمسلمين {إن تخفوا ما في صدوركم} أي نواياكم وما في قلوبكم، كما لو اتخذتم الكافر ولياً في قلبكم مما لم يعلم به الناس {أو تبدوه} أي تظهروه {يعلمه الله} فإنه العالم بالنوايا وما في الصدور {ويعلم ما في السماوات وما في الأرض} فهو العالم بكل شيء فكيف لا يعلم ما في صدوركم {والله على كل شيء قدير} فهو العالم بالنوايا والقادر على العقاب فمن الجدير بالمسلم أن لا يتخذ الكافر ولياً أو المؤمن عدواً حتى في قلبه إذ يعلمه الله ويقدر على عقابه.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣١) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٢) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ
اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٣) إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ
(٣٤) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٥) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٧) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا
زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ
مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

[٣١] اذكروا أيها الناس {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً} أي تجد كل أعماله الخيرية حاضرة كما قال سبحانه (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً)[٢٤] ومعنى حضور العمل حضور حساباتها وثوابها وعقابها أو تجسم الأعمال كما ذهب إلى ذلك بعض {وما عملت من سوء} أي تجد أعماله السيئة حاضرة {تود} تلك النفس العاصية {لو أن بينها} أي بين النفس {وبينه} أي بين ما عملت من سوء {أمداً بعيداً} أي مكاناً بعيداً تشبيه بالأمر المحسوس فكما أن المتباعدين لا يتلاقيان فعلاً كذلك لو كان العمل السيئ بعيداً عن عامله {ويحذركم الله نفسه} حتى تخافوا من عقابه فتتقوه {والله رؤوف} ذو رأفة ورحمة {بالعباد} ومن رأفته يحذركم عن المعاصي حتى لا يأخذكم وبالها وعاقبتها.

[٣٢] {قل} يا رسول الله {إن كنتم} أيها المسلمون، أو يا أهل الكتاب {تحبون الله} حقيقة وتصدقون في مقالتكم هذه {فاتبعوني} فيما أمر الله وأنهى {يحببكم الله} فإن الله لا يحب إلا من اتبع رسوله في أوامره ونواهيه وإلا مجرد دعوى حب الله بلا شاهد وحقيقة لا يكفي في حب الله تعالى للمدعي {ويغفر لكم ذنوبكم} فإن من أحسن واتبع الرسول يغفر ذنبه ويمحي سيئته {والله غفور رحيم} بعباده.

(٢٤) سورة الكهف: ٥٠.

[٣٣] {قل} يا رسول الله {أطيعوا الله والرسول} وإطاعة الله سبحانه هي إطاعة الرسول لكن ذكر ذلك تعظيماً للأمر وإردافاً لإطاعة الرسول بذلك كما قال (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ)[٢٥] مع أن خمس الله إنما هو للرسول ويحتمل أن يكون ذكر الله والرسول لإفادة وحدة الجهة أي إن الله والرسول لهما إطاعة واحدة فهو من قبيل أطع العلماء لا من قبيل أطع العالم أو أطع أباك {فإن تولوا} وأعرضوا فلم يطيعوا {فإن الله لا يحب الكافرين} الذين يعرضون عن أوامر الله ورسوله ومعنى لايحبهم أنه يبغضهم لا النفي للحب فقط المجامع لعدم البغض.

[٣٤] وحيث كان الكلام حول وحدة الدين وأنه هو الإسلام والتعريض بالكفار وأخيراً انتهى المطاف إلى ميزان حب الله سبحانه ناسب السياق ذكر بعض الأفراد الذين اختارهم الله سبحانه أليسوا هم جميعاً قادة دين واحد المنتهي إلى المسلمين فمن اللازم أن يعرفوهم ويقدروهم، فقال سبحانه {إن الله اصطفى} أي اختار لرسالته ووحيه وجعلهم أنبياء مرشدين {آدم ونوحاً وآل إبراهيم} الأنبياء الذين من نسله إسحاق وإسماعيل ويعقوب ويوسف وعيسى ومحمد «صلوات الله عليهم أجمعين» {وآل عمران} موسى وهارون (عليهما السلام) {على العالمين} وإنما خصص هؤلاء الأنبياء، لكون آدم أبو البشر، ونوح وآل إبراهيم بما فيهم إبراهيم . فإنه يقال آل فلان للأعم منه ومن آله . وآل عمران الذين فيهم الأنبياء، أولوا العزم هم مدار الرسالات العالمية.

[٣٥] حال كون نوح وآل إبراهيم وآل عمران {ذرية بعضها من بعض} في أداء الرسالة ومناصرة الدين وإرشاد الناس، فإن من خرج عن دين آبائه ليس منهم كما قال سبحانه (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ)[٢٦] بخلاف من اتبع آباءه {والله سميع} لما تقوله الذرية {عليم} بضمائرهم وأعمالهم ولذا فضلهم على من سواهم إن هؤلاء الأنبياء كلهم ذووا خصائص واحدة موروثة من جدهم آدم (عليه السلام) مما تؤهلهم لحمل الرسالة الواحدة التي هي رسالة الإسلام.

[٣٦] وفي هذا الجو يأتي ذكر والدة عيسى (عليه السلام) وأنها كيف كانت طاهرة زكية بحيث أهلت لإيداع النبي العظيم عندها، اذكر يا رسول الله {إذ قالت امرأة عمران} وهي حنّة جدة عيسى (عليه السلام) من الأم {رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً} وذلك حين حملت لم تكن تعلم أنها أنثى فنذرت أن تجعل ما في بطنها لخدمة المسجد ومعنى المحرر الفارغ من الأعمال الدنيوية الصارف جميع أوقاته في خدمة بيت الله سبحانه، وهكذا كان قلب أم مريم عامراً بالإيمان جاعلة أعز شيء لديها لله وفي خدمة عباد الله {فتقبل مني} نذري {إنك أنت السميع} لدعائي {العليم} بما في ضميري من صدق وإخلاص.

---

(٢٥) سورة الأنفال: ٤٢.

(٢٦) سورة هود: ٤٧.

[٣٧] {فلما وضعتها} أي وضعت امرأة عمران جنينها خاب ظنها ورأت أنها أنثى فـ {قالت} في يأس وتبتل {رب إني وضعتها أنثى} والأنثى لا تصلح للخدمة {والله أعلم بما وضعت} فإن الله كان يعلم ذلك منذ كانت جنيناً في بطنها بينما هي لا تعلم إلا بعد الوضع {وليس الذكر كالأنثى} فالذكر يأتي منه الخدمة ولا بأس بحشره في مكان العبادة في المسجد بخلاف الأنثى إذ لا تلائم الرجال ولا تلائم عادتها النسائية المسجد، ثم قالت {وإني سميتها مريم} أي جعلت اسمها «مريم» وهي في لغتهم بمعنى العابدة {وإني أعيذها} أي أجعلها في حفظك وحراستك {بك و} أعيذ {ذريتها من الشيطان الرجيم} أي المرجوم باللعن والمطرود عن الخير.

[٣٨] {فتقبلها ربها} أي تقبل الله سبحانه مريم مع أنوثتها {بقبول حسن} حيث قدر لها السعادة وأن يجعل منها عيسى المسيح (عليه السلام) {وأنبتها نباتاً حسناً} أي جعل نشوءها نشئاً حسناً بالفضيلة والأخلاق والعفة والطهارة {وكفلها زكريا} أي جعل الله سبحانه كفيلها زكريا وكان زوج خالة مريم، وهو من أنبياء الله سبحانه فإن أم مريم ذهبت بها إلى المسجد وسلمتها إلى الأحبار فتنازعوا في كفالتها حتى اقترعوا عليها وخرجت القرعة باسم زكريا فكانت مريم تخدم في صغرها المسجد حتى إذا بلغت مبلغ النساء انفصلت عنهم في غرفة خاصة بها بناها لها زكريا في وسط المسجد عالية لا يمكن الوصول إليها إلا بسلم وكان يأتي بحوائجها كل يوم وكان من غريب أمرها أن {كلما دخل عليها زكريا المحراب} وهي غرفتها وسمي محراباً لأنه محل محاربة النفس والشيطان {وجد عندها رزقاً} فاكهة في غير حينها {قال يا مريم أنى لك هذا} أي من أين لك هذا الرزق {قالت} مريم {هو من عند الله} أرسله إلي الله تعالى من الجنة كرامة لي {إن الله يرزق من يشاء بغير حساب} أي بغير تقتير أو محاسبة من المرزوق.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)
فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ
وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (٤٠) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ
وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤١) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَ تُكَلِّمَ
النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ (٤٢) وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ
يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٣) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ
وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٤) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا
مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمِنَ
الْمُقَرَّبِينَ (٤٦)

[٣٩] {هنالك} الذي رأى زكريا إكرام الله سبحانه لمريم نحو خرق العادة من إرسال الفاكهة إليها {دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك} أي من عندك {ذرية طيبة} أي نسلاً صالحاً {إنك سميع الدعاء} وكان زكريا يائساً من الأولاد حيث كبر وشاخ وكانت امرأته عاقراً لكن طلب ودعا مريداً على وجه الإعجاز وخرق العادة.

[٤٠] {فنادته} أي نادت زكريا {الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب} إما المراد المحراب أو نفس المسجد وسمي محراباً لأنه محل محاربة الشيطان والنفس حيث يريدان صرف الإنسان إلى الدنيا والمسجد يصرفه إلى الآخرة {أن الله يبشرك بيحيى} سماه سبحانه بهذا الاسم قبيل الولادة في حال كونه {مصدقاً بكلمة من الله} والمراد بالكلمة عيسى (عليه السلام) أي أن يحيى يصدق نبوة عيسى (عليهما السلام)، وإنما سمي عيسى (عليه السلام) كلمة الله لأنه كان بإلقاء الله إياها إلى مريم، كما تلقى الكلمة من الفم {وسيداً} أي ذو سيادة وشرافة {وحصوراً} يحصر نفسه عن الملذات، أو عن النساء خاصة بمعنى أنه (عليه السلام) كان زاهداً، وكون حصور مدحاً ليحيى (عليه السلام) لأسباب خاصة لا ينافي استحباب الزواج في الشرائع {ونبياً من الصالحين} الذين يصلحون ولا يكن فيهم فساد كما هو شأن جميع الأنبياء.

[٤١] فاستفسر زكريا (عليه السلام) عن كيفية حصول الولد هل يرزقه وهما على ما هما عليه من الحالة أم تتبدل حالتهما {قال} زكريا في جواب الملائكة سائلاً عن الله سبحانه {رب أنى يكون لي

غلام} أي كيف يكون لي ولد {وقد بلغني الكبر} أي الشيخوخة {وامرأتي عاقر} ليس لها قابلية الولادة {قال} الملك في جوابه {كذلك} أي كالحال الذي أنتما عليه من الكبر والعقر {الله يفعل ما يشاء} فإنه قادر على كل شيء.

[٤٢] {قال} زكريا (عليه السلام) {رب اجعل لي آية} أي علامة أعرف بها وقت الحمل لأزيد شكراً وسروراً أو علامة أعرف بها استجابة دعائي ليطمئن قلبي وأجده محسوساً ملموساً بعدما وجدته سماعاً بالبشارة {قال} الملك، أو الله سبحانه بخلق الصوت في الفضاء {آيتك} أي الدليل على ذلك {أن لا تكلم الناس} أي لا تقدر على التكلم معهم كلما توجهت إليهم بالكلام يعقد لسانك {ثلاثة أيام إلا رمزاً} بالإشارة باليد والرأس {واذكر ربك كثيراً} فإن لسانك لا ينعقد عن الذكر والتسبيح لله سبحانه {وسبح} أي نزه الباري تعالى {بالعشي} آخر النهار {والإبكار} أول النهار، من أبكر فهو اسم مفرد لا جمع.

[٤٣] ثم رجع السياق إلى بقية قصة مريم (عليها السلام) حيث كانت قصة زكريا (عليه السلام) توسطت في الموضوع لمناسبة {و} اذكر يا رسول الله {إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك} اختارك لعبادته وإطاعته وأن تكوني وعاءً لنبيه {وطهرك} من الآثام والذنوب والأدناس والعادات النسائية {واصطفاك على نساء العالمين} وكرر الاصطفاء تأكيداً ومقدمة لذكر نساء العالمين فليس الاختيار لها في جملة مختارات وإنما هي مختارة على سائر نساء زمانها وعوالمها لا كل العالمين فإن فاطمة (عليها السلام) هي المختارة المطلقة على جميع النساء وقد تقدم أن مثل هذه العبارة تقال مراداً بها العوالم المعاصرة لا كل العوالم كما يقال إن الدولة الفلانية أقوى جميع الدول يراد الدول المعاصرة لها لا كل دولة في العالم أتت أو تأتي.

[٤٤] {يا مريم اقنتي} القنوت الخضوع والإخلاص في العبادة {لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} أي في جملة الذين يركعون لله سبحانه.

[٤٥] {ذلك} الذي تقدم من قصص مريم وزكريا ويحيى {من أنباء الغيب} أي الأخبار الغائبة عن الحواس فإن كل شيء غاب عن الحواس يسمى غيباً {نوحيه إليك} أي نلقيه عليك ليدل على أنك من المرسلين فإن الإخبار عما لم يحضره الإنسان ولم يعلمه من طريق التاريخ يدل على كونه بالإعجاز وخارق للعادة {وما كنت} يا رسول الله {لديهم} أي عند الأحبار والمعاصرين لمريم (عليها السلام) {إذ يلقون أقلامهم} التي بها كانوا يكتبون التوراة {أيهم يكفل مريم} فإن زوجة عمران لما أتت بمريم إلى المسجد اختلفت الأحبار في من يكفلها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي فقال له الأحبار: إنها لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التي ولدتها ولكن نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه، فانطلقوا وهم تسعة وعشرون رجلاً إلى نهر جار فألقوا

أقلامهم في الماء فأبرز قلم زكريا وارتفع فوق الماء ورسبت أقلامهم ولذا أخذها زكريا {وما كنت لديهم إذ يختصمون} في شأنها وأن أيهم يكفلها.

[٤٦] واذكر يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) {إذ قالت الملائكة} مخاطبة لمريم (عليها السلام) {يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه} أي بولد هو كلمة الله تلقى عليك ويخرج منك بصورة عيسى المسيح (عليه السلام) {اسمه المسيح عيسى بن مريم} قيل سمي مسيحاً لأنه كان يمسح الأرض ويسير فيها، وذكر في الكلام أمه دحضاً لمن يفتري قائلاً: أنه ابن الله، في حال كونه {وجيهاً في الدنيا والآخرة} أي ذا جاه وقدر وشرف {ومن المقربين} لله تعالى قرب شرف وجاه لا زمان ومكان.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٧) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٨) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ (٤٩) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٠) وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥١) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥٢) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٣)

[٤٧] {ويكلم الناس في المهد} أي في حال كونه صغيراً قبل أوان تكلم الأطفال والمهد هو الموضع الذي يوضع فيه الطفل ويهز من خشب أو حديد أو ثوب أو نحوها {وكهلاً} أي يكلمهم كهلاً بالوحي والكهل ما بين الشاب والشيخ أو يراد الإخبار عن بقائه إلى ذلك الوقت {ومن الصالحين} الذين فيهم الصلاح دون الفساد.

[٤٨] {قالت} مريم لما سمعت هذا النبأ المدهش {رب أنى يكون لي ولد} أي كيف يمكن أن ألد ولداً {ولم يمسسني بشر} أي لم يقترب مني على نحو النكاح فإنها كانت دون زوج {قال} الملك في جواب مريم {كذلك} أي هكذا بدون المس والزوج {الله يخلق ما يشاء} فإنه ليس بخارج عن قدرة الله سبحانه {إذا قضى أمراً} أراد خلقه وتكوينه {فإنما يقول له كن} قولاً أو إرادة بدون تلفظ {فيكون} في الخارج، فإن الله يوجد الأشياء بصرف الإرادة.

[٤٩] {ويعلمه} أي يعلم الله سبحانه المسيح {الكتاب} أي الكتابة أو مطلق الكتاب المنزل من السماء {والحكمة} حتى يكون حكيماً يعرف مواضع الأشياء أو المراد بالحكمة علم الشرائع من الحلال والحرام وسائر الأحكام {والتوراة} وهو كتاب موسى (عليه السلام) {والإنجيل} وهو الكتاب الذي أنزل على المسيح بنفسه وقد ذكروا أن معنى التوراة «التعليم والبشارة» ومعنى الإنجيل «البشارة والتعليم».

[٥٠] {و} نجعله {رسولاً إلى بني إسرائيل} لإرشادهم من الضلالة إلى الحق، وانتقل السياق إلى كلام عيسى (عليه السلام) الذي كان يتكلم به بعد النبوة، فكان يقول لبني إسرائيل {أني قد جئتكم بآية من ربكم} أي بمعجزة وعلامة تدل على صدق دعواتي للنبوة وأني رسول إليكم {أني أخلق لكم}

أي أصنع لأجلكم {من الطين كهيئة الطير} أي على صورة الطائر {فأنفخ فيه} أي في الطائر المصنوع من الطين {فيكون طيراً بإذن الله} وإرادته وقدرته، فصنع صورة خفاش من الطين ونفخ فيه فطار {وأبرئ} أي أشفي {الأكمه} الذي ولد أعمى، أو مطلق الأعمى {والأبرص} الذي أصيب بمرض البرص وهو الوضح {وأحيي الموتى} كل ذلك {بإذن الله} فكان يقف على القبر ويقول للميت قم بإذن الله فيقوم ينفض عن جسمه الغبار كأنه لم يمت أصلاً {وأنبئكم} أي أخبركم {بما تأكلون} إخباراً عن الغيب {وما تدخرون} من الادخار {في بيوتكم} فكان يقول للشخص تغذيت بكذا أو حفظت لليل كذا {إن في ذلك} الذي ذكرت من المعجزات {لآية} معجزة دالة على صدقي {لكم إن كنتم مؤمنين} بالله وإنما يقيد بالإيمان لأن من لايؤمن بالله سبحانه لايمكن أن يفرق بين المعجزة والسحر.

[٥١] {و} ذلك في حال كونه {مصدقاً لما بين يدي} أي ما تقدم علي وأنزل قبلي {من التوراة} فإنه من أسباب لزوم تصديقي حيث لا أبطل كتاب بني إسرائيل {ولأحل لكم} يا بني إسرائيل {بعض الذي حرم عليكم} في شريعة موسى (عليه السلام) وهذا التحليل إنما كان لانقضاء ظرف التحريم {وجئتكم بآية من ربكم} أي بحجة تشهد بصدقي وأني من قبل الله سبحانه، وهي إما إجمال لما فصل في الآية السابقة، جمعاً لأعماله (عليه السلام) في الأمور الثلاثة، التصديق، والتحليل، والإعجاز، وإما يراد به آية أخرى لم تذكر في القرآن {فاتقوا الله} وصدقوا برسالتي {وأطيعون} فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

[٥٢] {إن الله ربي وربكم} فلست أنا ابناً له، قال ذلك رداً على النصارى الذين اتخذوه إلهاً {فاعبدوه} وحده ولا تعبدوا من دونه الشركاء كما عبدت اليهود عزيراً، وعبدت النصارى المسيح {هذا صراط مستقيم} لا اعوجاج له ولا انحراف بخلاف سائر الطرائق التي هي طرق معوجة منحرفة زائغة.

[٥٣] وبعد هذه الحجج لم يزدد بني إسرائيل إلا عناداً واستكباراً {فلما أحس} من الحس أي وجد {عيسى} {منهم الكفر} وأنه لم تنفعهم الحجة والدليل {قال من أنصاري إلى الله} الذين ينصرون ديني للوصول إلى ثواب الله تعالى إذ المسلم يقطع طريق الوصول إلى الله لينتهي إلى ثوابه {قال الحواريون} هو جمع حواري من الحور بمعنى شدة البياض وسمي خاصة الإنسان بالحواري لنقاء قلبه وصفاء باطنه {نحن أنصار الله} الذين ننصر دينه ونتابعك على ما أنت عليه {آمنا بالله} إيماناً لا يشوبه شرك {واشهد} يا عيسى {بأنّا مسلمون} في أدياننا.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٤) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ
وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٥) إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٦) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً
فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٧) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٨) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٩) إِنَّ
مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٠) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦١) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ
(٦٢)

[٥٤] ثم توجهوا إلى الله سبحانه داعين قائلين {ربنا} أي يا ربنا {آمنا بما أنزلت} على رسولك عيسى (عليه السلام) {واتبعنا الرسول} فيما أمر ونهى {فاكتبنا مع الشاهدين} الذين يشهدون على الأمم كما قال سبحانه (لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[٢٧] فالرسل شهداء على أصحابهم وهم شهداء على سائر الناس.

[٥٥] ذلك كان قول أنصار عيسى والمؤمنين به أما الكفار الذين جحدوه وأنكروه فلم يؤمنوا {ومكروا} لعيسى (عليه السلام) بأن يقتلوه {ومكر الله} بإنقاذه منهم وقتل كبيرهم عوضه، والمكر لغة بمعنى تطلب العلاج لأمرما والغالب يستعمل في الشر، ولعل نسبة المكر هنا إلى الله سبحانه للمقابلة نحو قوله (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)[٢٨] مع أن الله سبحانه ليس له نفس {والله خير الماكرين} لأنه أعرف بطرق العلاج، وفي بعض التفاسير أنه لما أراد ملك بني إسرائيل قتل عيسى (عليه السلام) دخل خوخته وفيها كوة فرفعه جبرائيل من الكوة إلى السماء وقال الملك لرجل خبيث من الكفار ادخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى (عليه السلام) فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه بظن أنه عيسى وكان قتله على نحو الصلب وكلما صاح أنه ليس بعيسى لم يفد.

---

(٢٧) سورة البقرة: ١٤٤.

(٢٨) سورة المائدة: ١١٧.

[٥٦] واذكر يا رسول الله {إذ قال الله} أو ذاك إذ قال، أو ومكر الله إذ قال {يا عيسى إني متوفيك} أي آخذك وافياً فإن معنى توفاه أخذه وافياً ويقال توفى الله فلان حين يأخذ روحه وافية من الوفاء وهو في أخذ الروح والجسد أقرب إلى الحقيقة من أخذ الروح فقط فإنه بعلاقة الكل والجزء أي آخذك {ورافعك إلي} فإنه (عليه السلام) رفع إلى السماء الرابعة كما في بعض الأحاديث وقد يظن أن ذلك ينافي ما اشتهر في العلم الحديث من عدم وجود سماوات ذات حجوم لكنه ظن غير تام إذ السماء حتى لو كان يراد بها المدار ـ كما هو معناه لغة ـ تكون هناك سماوات وللتوضيح راجع «الهيئة والإسلام» تأليف «العلامة الشهرستاني» {ومطهرك من الذين كفروا} فإنهم أرجاس أنجاس فكما أن الجسم المحاط بالنجاسة إذا غسل يطهر عنها كذلك إن الإنسان الطيب في أناس كفرة عصاة إذا أخرج من بينهم كان تطهيراً له في المعنى عن لوثهم وكفرهم {وجاعل الذين اتبعوك} من النصارى {فوق الذين كفروا} بك من اليهود {إلى يوم القيامة} وهذا من معاجز القرآن الحكيم فإن النصارى دائماً فوق اليهود إلى يومنا هذا وسيكونون كذلك إلى يوم القيامة {ثم إلي مرجعكم} جميعاً أنت وأصحابك الكفار، وذلك يوم القيامة {فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون} من التوحيد والشرك ومن كونك نبياً وسائر الأصول والفروع التي كنت تنادي بها وتبشر من أجلها وكان اليهود يكفرون بها.

[٥٧] {فأما الذين كفروا} بك وبما جئت به {فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا} بضرب الذلة والمسكنة عليهم وإنهم دائماً تحت حكم أصحابك وأنه لا تقوم لهم دولة إلا بحبل من الله وحبل من الناس وإنهم مكروهون منفورون أبد الآبدين {والآخرة} بإدخالهم ناراً أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل {وما لهم من ناصرين} ينصرونهم من بأس الله وعذابه.

[٥٨] {وأما الذين آمنوا} بك وبما بشرت به {وعملوا الصالحات} مما أمرناهم به واجتنبوا عن المحرمات، فإنه لا يقال يعمل فلان الصالحات إلا إذا اجتنب الآثام إلى جنب إتيانه بالواجبات {فيوفيهم} أي يعطيهم الله {أجورهم} كاملة غير منقوصة فإن الوفاء إعطاء المطلوب كاملاً {والله لا يحب الظالمين} الذين ظلموا بالكفر أو بعدم العمل الصالح.

[٥٩] {ذلك} المذكور هنا من أخبار زكريا وعيسى ويحيى ومريم (عليهم السلام) {نتلوه عليك} أي نقرأه عليك بسبب الوحي {من الآيات} أي من جملة الآيات والحجج الدالة على صدقك وأنك نبي يوحى إليه {و} من {الذكر} إي القرآن {الحكيم} المحكم الذي لا يتطرق إليه بطلان أو زيغ.

[٦٠] وهنا تتهيأ النفوس لإدراك حقيقة عيسى هل كان بشراً وكيف ولد من غير أب فقال سبحانه {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم} فليس ولادة عيسى من غير أب عجيباً وبدعاً ولا يدل ذلك على أنه رب، فآدم أعجب منه أليس الله سبحانه {خلقه} أي خلق آدم {من تراب} صنعه وجسده {ثم قال له كن} إنساناً حياً {فيكون} كما قال ومقتضى القاعدة أن يقال «فكان» إلا أن

هذه الجملة أخذت صيغة المثالية نحو الصيف ضيعت اللبن، ولذا يؤتى بها على لفظها وقد تقدم أن كلمة «كن» تعبر عن الإرادة الأزلية لا أن في اللفظ خصوصية.

[٦١] {الحق من ربك} يا رسول الله أي أن قصة عيسى هكذا أو خلقه كذلك حق من ربك {فلا تكن من الممترين} أي من الشاكين فإن امترى بمعنى شك والخطاب وإن كان للرسول لكنه عام لكل أحد، ومن المعلوم أن توجيه الخطاب لا يلازم احتمال وجود الصفة، وإنما أكد البيان بجملة «فلا تكن» لكثرة الشك والتشكيك لدى الناس في مختلف شؤون عيسى (عليه السلام).

[٦٢] {فمن حاجك} وجادلك يا رسول الله {فيه} أي في عيسى قائلاً أنه ليس بشراً وإنما هو رب انفصل عن الرب، ونزلت الآية في وفد نجران من المسيحيين الذين جاءوا للمجادلة مع الرسول (صلى الله عليه وآله) ولم تنفعهم الحجة والدليل فقرر الطرفان أن يخرجوا إلى الصحراء ليدعو كل من الطرفين على الكاذب فخرج الرسول (صلى الله عليه وآله) يوم الموعد مع علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فلما رأتهم النصارى أحجموا وقال كبيرهم: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة وقال الرسول (صلى الله عليه وآله): والذي نفسي بيده لو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا {من بعد ما جاءك من العلم} حول قصة عيسى (عليه السلام) {فقل} لهم يا رسول الله {تعالوا} أي هلموا إلى حجة أخرى ليست محل نقاش وجدال {ندع} أي يدعو كل طائفة منا {أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا} أي من هو بمنزلة أنفسنا {وأنفسكم} أي من هو بمنزلة أنفسكم، والمراد دعوة كل طرف خواصه ومن يقترب إليه من الأبناء والنساء ومن هو بمنزلة نفسه {ثم نبتهل} الابتهال طلب اللعنة من الله سبحانه أي تدعو كل طائفة على الأخرى قائلين: لعن الكاذب، وقد يستعمل الابتهال بمعنى مطلق الدعاء خيراً كان أو شراً {فنجعل} في ابتهالنا {لعنة الله على الكاذبين} وقد أجمع المفسرون أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يخرج معه إلا ابنيه الحسن والحسين وبنته فاطمة وابن عمه علياً (عليهم السلام) .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٣) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٤) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٥) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٦) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٦٧) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٨) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٩) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧١)

[٦٣] {إن هذا} الذي أوحينا إليك في أمر عيسى وغيره {لهو القصص} جمع قصة {الحق} الذي لا كذب فيه ولا زيغ {وما من إله إلا الله} فليس عيسى إلهاً كما يزعم النصارى {وإن الله لهو العزيز} في سلطانه {الحكيم} في أفعاله فلا يتخذ البشر إبناً له كما يقول اليهود والنصارى.

[٦٤] {فإن تولوا} وأعرضوا مصرين على عقائدهم الفاسدة {فإن الله عليم بالمفسدين} الذين يفسدون عقائد الناس وأعمالهم فإنهم لايفوتونه سبحانه بل هم بعلمه وسيجازيهم بأعمالهم وأفعالهم.

[٦٥] وحيث انتهى السياق من قصص عيسى (عليه السلام) تناول الحديث حول أهل الكتاب وانحرافاتهم للعلاقة الوثيقة بين الموضوعين فقال سبحانه {قل} يا رسول الله {يا أهل الكتاب} والمراد بهم اليهود والنصارى {تعالوا} أي هلموا نجتمع جميعاً {إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} أي إلى كلام عدل لا ميل له ونحن جميعاً نعترف به وندع ما سوى ذلك ما لم يدل عليه دليل {ألا نعبد إلا الله} فإن العبادة لا تجوز إلا له إذ هو الذي خلق الكون {ولا نشرك به شيئاً} من إنسان أو حيوان أو جماد كما يصفه المشركون {ولا يتخذ بعضنا بعضاً} أي بعض البشر {أرباباً} وآلهة {من دون الله} كاتخاذ النصارى المسيح إلهاً أو المراد اتخاذ الأحبار والرهبان آلهة في الإطاعة فيما خالف الله سبحانه كما قال: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً)[٢٩] {فإن تولوا} أي أعرضوا عن ذلك {فقولوا} لهم {اشهدوا بأنا مسلمون} لله وحده نتبع طريقه ولا نبتغي غير الإسلام ديناً.

---

(٢٩) سورة التوبة: ٣١.

[٦٦] وقد كان أهل الكتاب يقولون أن إبراهيم (عليه السلام) كان على ديننا فاليهود منهم كانوا يقولون أنه (عليه السلام) كان يهودياً والنصارى منهم كانوا يقولون أنه (عليه السلام)كان مسيحياً فقال سبحانه في ردهم {يا أهل الكتاب لم} أي لماذا {تحاجون} وتجادلون {في إبراهيم} (عليه السلام) وتنسبوه إلى اليهودية والنصرانية {و} الحال أنه متقدم زماناً على كلا الدينين، فإبراهيم جد موسى وعيسى وهو سابق عليهما بقرون فإنه {ما أنزلت التوراة} على موسى {والإنجيل} على عيسى {إلا من بعده} أي بعد إبراهيم {أفلا تعقلون} أليس لكم عقل حتى تعرفون التاريخ.

[٦٧] {ها} تفيد التنبيه {أنتم هؤلاء} يا معشر أهل الكتاب {حاججتم} وجادلتم {فيما لكم به علم} مما تعلمون كالقبلة ونحوها {فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم} إذ لا تعلمون تاريخ إبراهيم وتجادلون في أنه كان يهودياً أو نصرانياً {والله يعلم} تاريخ إبراهيم ودينه {وأنتم لا تعلمون} فما هذه المخاصمة والمجادلة.

[٦٨] {ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً} فإنهما طريقتان متأخرتان انحرفتا عن سنن الأنبياء حتى أن المسيح وموسى (عليها السلام) لم يكونا متصفين بهاتين الملتين {ولكن كان حنيفاً} مستقيماً في دينه لا منحرفاً {مسلماً} لما تقدم من أن الإسلام دين الأنبياء جميعاً {وما كان من المشركين} كشرك اليهود الذين جعلوا عزير ابن الله وشرك النصارى الذين جعلوا المسيح إلهاً أو ابن الله.

[٦٩] كانت اليهود تقول نحن أولى بإبراهيم لأنه على ديننا وكانت النصارى تقول مثل ذلك فنزلت {إن أولى الناس بإبراهيم} الذي يحق أن يفتخر به ويقول أنا على طريقته وأنه رئيس الملة لي {للذين اتبعوه} في زمانه وبعده إذ التابع يحق له أن يفتخر برئيسه ومتبوعه لا من يتبع غيره كاليهود والنصارى الذين خالفوا إبراهيم {وهذا النبي والذين آمنوا} عطف على «الذين اتبعوه» فإن هذا النبي والمؤمنين هم الذين اتبعوا إبراهيم وهم على ملته فإن ملته التوحيد وخلع الأنداد {والله ولي المؤمنين} يلي أمورهم وينصرهم على عدوهم.

[٧٠] {ودت} أي أحبت ورغبت {طائفة من أهل الكتاب} أي جماعة منهم فإن كثيراً من أهل الكتاب لم يكن يعنيهم هذه الأمور {لو يضلونكم} عن دينكم حتى تدخلوا في دينهم أو ترجعوا كفاراً {وما يضلون} هؤلاء {إلا أنفسهم} فإنهم بتركهم الإسلام والتزامهم أديانهم المنحرفة سببوا ضلالاً لأنفسهم، أو المراد أنه لا يرجع وبال إضلالهم إلا على أنفسهم حيث يوجب ذلك لهم خزياً في الدنيا وعذاباً في الآخرة {وما يشعرون} أي ما يعلمون أنهم أضلوا أنفسهم أو ما شعروا بأنه رجع وبال إضلالهم إلى أنفسهم.

[٧١] {يا أهل الكتاب} هم اليهود والنصارى، والمجوس وإن كانوا أهل الكتاب إلا أن هذه المباحثات كانت مع الطائفتين فقط كما يستفاد من سياق الآيات {لم} أي لماذا {تكفرون بآيات الله} بدلائله وحججه التي أقامها على التوحيد والرسالة وسائر الأمور {وأنتم تشهدون} بلزوم الإقرار بها

شهادة فيما بينكم، أو شهادة حسب كتبكم الدالة على التوحيد ورسالة محمد (صلى الله عليه وآله) وسائر الأمور المختلف فيها.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧٢) وَقَالَتْ
طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (٧٣) وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا
أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٤)
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٥) وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٦) بَلَى مَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٧) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً
أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ
يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٨)

[٧٢] {يا أهل الكتاب} وخطابهم بهذا الخطاب إشعار بأنهم ينبغي أن لايكونوا كذلك إذ هم أهل العلم والدراية وفيهم نزل كتاب الله سبحانه {لم} أي لماذا {تلبسون الحق بالباطل} أي تخلطون الحق بالباطل ففي أعمالكم قسم من الحق وقسم من الباطل فالإيمان بموسى وعيسى (عليهما السلام) حق والكفر بمحمد (صلى الله عليه وآله) باطل وهكذا بعض كتابهم حق وبعضه الذي حرفوه باطل {وتكتمون الحق وأنتم تعلمون} أي تعلمون أنه حق فقد كان علماؤهم يكتمون صفات الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى لا يميلوا نحوه وتذهب رئاستهم.

[٧٣] وقد صدرت مكيدة من أهل الكتاب لتضليل الناس وأن لا يتعلقوا بدين الإسلام، حيث يظهرون عملاً يصورهم عند الناس في صورة المنصف وأنهم إنما لم يتبعوا الإسلام لأنهم لم يجدوه حقاً {وقالت طائفة} أي جماعة {من أهل الكتاب} بعضهم لبعض {آمنوا} أي أظهروا الإيمان {بالذي أنزل على الذين آمنوا} أي بالقرآن {وجه النهار} أي أول الصبح، فقولوا إنا آمنا بمحمد وكتابه لأنا وجدناه في كتبنا {واكفروا آخره} أي آخر النهار فقولوا بعد أن آمنا رجعنا إلى صفات محمد ثانياً فوجدناها ليست كما ذكر في كتابنا، فإن هذا العمل يريكم في أعين الناس منصفين حيث آمنتم بمحمد بمجرد علمكم بحقيقته، وإنما رجعتم حيث ظهر لكم عدم الحقيقة، فتوهمون الناس أنكم منصفون صادقون تريدون الحق {لعلهم يرجعون} أي لعل هذا العمل الخداعي يسبب رجوع المسلمين عن إسلامهم حيث يوجب ذلك تشكيكاً لهم.

[٧٤] {ولا تؤمنوا} أي لا تظهروا الإيمان {إلا لمن تبع دينكم} فإيمانكم وجه النهار يكون عند أهل الكتاب لا عند المسلمين، أو لا تؤمنوا إيماناً صادقاً من قلوبكم إلا لأهل الكتاب، فلا تؤمنوا للمسلمين، ومعنى الإيمان لمن تبع دينهم أنهم يؤمنون بمثل ما آمن أهل الكتاب {قل} لهم يا رسول الله {إن الهدى} الحقيقي {هدى الله} لا هذا الهدى الاصطناعي الذين تريدون به خداع أصحابكم والمسلمين فلسنا في حاجة إلى هداكم كما لا نخاف من إضلالكم فإن الله إذا هدى شخصاً لا يرجع بخداعكم، ثم يرجع السياق إلى كلام اليهود بعضهم لبعض، ولا تؤمنوا {أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم} فإنما أوتيتم أيها اليهود هو خير مما أوتي غيركم فلا يكن إيمانكم بمحمد (صلى الله عليه وآله) إيماناً عن قلب أو صدق {أو يحاجوكم عند ربكم} أي لا تؤمنوا أن يحاجكم المسلمون عند ربكم بمعنى أنه لا يمكن أن يكون ذلك إذ المحاجة لا تكون من المبطل. والمسلم مبطل بزعمهم. {قل} يا رسول الله رداً على قولهم «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم» {إن الفضل بيد الله} فأي مانع من أن يعطي المسلمين مثل ما أعطى اليهود وأفضل منه {يؤتيه من يشاء والله واسع} الفضل لا ينفد فضله بإعطائه لأحد {عليم} بمصالح الخلق يعلم حيث يجعل رسالته.

[٧٥] {يختص برحمته من يشاء} من عباده {والله ذو الفضل العظيم} فإن فضله يبتدئ بالخلق وينتهي إلى حيث لا قابلية فوقه.

[٧٦] وقد جمع بعض أهل الكتاب إلى تلك الرذائل السابقة رذيلة الخيانة {ومن أهل الكتاب} أي بعض أهل الكتاب. والمراد به من آمن منهم كعبد الله بن سلام. {من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك} أي تجعله أميناً على قنطار من مالٍ لا يخونه بل يؤديه إليك عند المطالبة، وقد ورد أن عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأداه إليه فمدحه الله بهذه الآية {ومنهم من إن تأمنه بدينار} أي تجعله أميناً على مالٍ قليل كدينار {لا يؤده إليك} عند المطالبة فإن رجلا من قريش استودع «فخاص» ديناراً فخانه ولم يرده إليه {إلا ما دمت عليه قائماً} بالضغط والإلحاح والمراقبة {ذلك} الاستحلال والخيانة منهم لأموال الناس {بـ} سبب {أنهم} أي الخائن من أهل الكتاب {قالوا ليس علينا في الأميين سبيل} أي لا سبيل ولا غضاضة علينا في استحلالنا أموال الأميين أي العرب حيث أنهم خرجوا عن دينهم أي غير الشرك وقد أودعونا حال شركهم فإذا رفضوا طريقتهم إلى الإسلام سقط حقهم كذا كانوا يقولون وينسبونه إلى كتبهم {ويقولون على الله الكذب} فإنه ليس ذلك في كتبهم، بل اللازم أداء الأمانة إلى البر والفاجر {وهم يعلمون} أنهم يكذبون على الله وأن عدم الأداء خيانة ورذيلة.

[٧٧] {بلى} فيه نفي لما قبله وإثبات لما بعده أي لم يجز الله الخيانة بل أوجب الأداء فـ {من أوفى بعهده} وأدى الأمانة التي عنده {واتقى} من عذاب الله في الخيانة وغيرها {فإن الله يحب المتقين} لا الخائنين الكاذبين.

[٧٨] {إن} من يأكل الأمانة ويكذب على الله فقد باع دينه بثمن قليل و {الذين يشترون بـ} مقابل {عهد الله} الذي هو الكتاب والدين {و} بـ {أيمانهم} أي أقسامهم الكاذبة التي يحلفون بها لأجل الباطل {ثمناً قليلاً} وقد تقدم أن الأمور الدنيوية مهما عظمت فإنها قليلة بالنسبة إلى الآخرة {أولئك لا خلاق لهم في الآخرة} أي لا نصيب لهم من رحمة الله وجنته في الآخرة {ولا يكلمهم الله} كلام لطف وحنان وهو كناية عن غضب الله عليهم كما أن من غضب على شخص لا يكلمه {ولا ينظر إليهم} أي لا يعمهم بلطفه وإحسانه وهو كناية أخرى عن الغضب كالذي يغضب على شخص فلا ينظر إليه {يوم القيامة} ذلك اليوم الذي يحتاج كل أحد إلى فضله وإحسانه تعالى {ولا يزكيهم} أي لا يطهرهم من الدنس فإن قلب الخائن الكاذب أقذر ما يكون فلا يشمله الله سبحانه بلطفه الخاص الذي يلطف به على المؤمنين {ولهم عذاب أليم} أي مؤلم موجع.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٩)
مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ
وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٨٠) وَلاَ
يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) وَإِذْ
أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ
مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨٢) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٣) أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ
وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٤)

[٧٩] {وإن منهم} أي بعض أهل الكتاب {لفريقاً} أي جماعة {يلوون ألسنتهم بالكتاب} أي يطوون ألسنتهم عند قراءة الكتابة وطي لسانهم إنما هو بالزيادة والنقيصة فكما أن ليّ الشي يخرجه عن الاستقامة بالزيادة في جانب والنقيصة في جانب كذلك ليّ اللسان بالكتاب، فإنهم أضافوا على التوراة والإنجيل في مواضع ونقصوا منهما في مواضع {لتحسبوه} أيها المسلمون {من الكتاب} فيكون شاهداً لأباطيلهم المخترعة {وما هو من الكتاب} بل من إضافاتهم وتحريفاتهم {ويقولون هو} ما يتلونه باسم الكتاب {من عند الله} تعالى {وما هو من عند الله} بل من مخترعاتهم الكاذبة {ويقولون على الله الكذب} في نسبتهم ذلك التحريف إليه سبحانه {وهم يعلمون} أنه ليس من الكتاب وأنهم كاذبون.

[٨٠] وحيث أنه كان من أظهر تلك التحريفات تحريفهم حول المسيح (عليه السلام) وادعائهم أنه شريك مع الله وأن ذلك موجود في كتابهم، ردهم الله سبحانه بأن ذلك مستحيل في حق المسيح، لأن الله سبحانه لا يعطي النبوة لرجل كاذب يدعي لنفسه الربوبية فإنه {ما كان لبشر أن يؤتيه الله} أي يعطيه {الكتاب والحكم} بين الناس {والنبوة} والرسالة {ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله} أي اعبدوني دونه سبحانه، أو المراد اعبدوني معه، فإن عبادة الشريك عبادة لمن دون الله، ولأن الشرك معناه عدم عبادة الله إطلاقاً إذ الله لا شريك له، فمن له شريك ليس هو بإله، وفي بعض التفاسير أن سبب نزول هذه الآية أن يهودياً سأل النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك ونزلت الآية {ولكن} اللازم على الرسول أن يقول للناس {كونوا ربانيين} منسوبين إلى الرب ترشدون الناس إلى التوحيد وتعبدون إلهاً واحداً {بـ} سبب {ما كنتم} أي كونكم {تعلّمون} للناس {الكتاب} الذي أخذتموه من نبيكم {وبما

كنتم تدرسون} أي بسبب درسكم إياه يعني أن الرسول يقول للناس إنكم بسبب كونكم علماء معلمين مدرسين يجب أن تكونوا ربانيين منسوبين إلى الرب فقط لا إلى غيره من الأنداد والشركاء.

[٨١] {ولا} يكون للنبي أن {يأمركم} عطف على «ما كان لبشر أن يؤتيه الله» {أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً} فإن ذلك محال إذ من يختاره الله للرسالة لا يأمر بالكفر {أيأمركم} أي هل يأمركم النبي {بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون} أسلمتم بإيمانكم بالنبي، وهذا استفهام إنكاري أي لايكون ذلك أبداً فقد أخرجكم النبي من الكفر إلى الإسلام فكيف يأمركم بالكفر ثانياً بأن تتخذوه شريكاً لله.

[٨٢] وإذ تم الكلام حول عيسى وأنه ليس بشريك لله سبحانه رجع السياق إلى نبي الإسلام وأنه النبي بعد عيسى (عليه السلام)، {و} اذكر يا رسول الله {إذ أخذ الله ميثاق النبيين} عهدهم المؤكد {لما آتيتكم من كتاب وحكمة} «ما» بمعنى «مهما» أي أخذ الله عهد النبيين أنه مهما أعطاه الله الكتاب والحكمة والرسالة {ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم} يراد به نبي الإسلام، أو كل نبي يأتي بعدهم {لتؤمنن به} هذا جواب «مهما» فالله سبحانه كان يأخذ من النبيين الميثاق أنه مهما أعطى أحدهم الرسالة فإن عليه أن يؤمن برسول الإسلام، أو عليه أن يؤمن بالرسول الذي يتلوه وأن يناصره ويعاضده، وفي الوجه الأول إفادة أن الأنبياء جميعاً أقروا بالرسول (صلى الله عليه وآله)، واعترفوا به وآمنوا به وفي الوجه الثاني إفادة أن كل رسول كان يؤمن بالرسول الذي يأتي من بعده حتى أن الأنبياء كلهم كسلسلة واحدة يؤمن سابقهم بلاحقهم ويصدق لاحقهم سابقهم {ولتنصرنه} ومعنى نصرة النبي السابق للاحق أن يأخذ له العهد من أمته {قال} الله تأكيداً لأخذ الميثاق {أأقررتم} أي هل أقررتم أيها الأنبياء باستعدادكم للإيمان بالرسول ونصرته {وأخذتم على ذلكم} الإيمان بالرسول ونصرته {إصري} أي عهدي الأكيد من أممكم حتى يؤمنوا بالرسول وينصروه {قالوا} أي قالت الأنبياء في جواب الله سبحانه {أقررنا} بذلك وأخذنا الأمر {قال} الله سبحانه لهم {فاشهدوا} بذلك على أممكم أي كونوا شهداء عليهم حتى نحتج على المخالف يوم القيامة بشهادتكم {وأنا معكم من الشاهدين} فإني أيضاً شهيد عليهم بأنهم أقروا بأن يؤمنوا بالرسول وينصروه، وقد روي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه لم يبعث الله نبياً آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد بالإيمان بمحمد (صلى الله عليه وآله) وأمره بأخذ العهد بذلك من أمته[٣٠].

[٨٣] {فمن تولى} وأعرض عن الإيمان والنصرة {بعد ذلك} العهد الذي أخذه نبيه منه {فأولئك هم الفاسقون} الخارجون عن إطاعة الله سبحانه حيث نقضوا العهد وخالفوا الوعد.

[٨٤] إن عدم الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وآله) خلاف عهدهم أولاً وخلاف الواجب عليهم ثانياً {أفغير دين الله يبغون} أي يطلبون ويريدون غير دين الله ودين الإسلام الذي ثبت بالآيات

---

(٣٠) بحار الأنوار: ج١١، ص١٣.

والحجج {وله} أي لله {أسلم من في السماوات والأرض} فكل شيء في الكون خاضع له سبحانه منقاد لأمره فما بال هؤلاء يخالفون دين الله الذي أذعن له كل الكون {طوعاً وكرهاً} فإن ذوي العقول من الملائكة ونحوه أسلم لله طوعاً والجمادات أسلمت كرهاً بمعنى أنها مستمرة حسب مشيئة الله سبحانه {وإليه يرجعون} أي إلى حكمه وأمره وثوابه وعقابه يرجعون عند الموت أو في القيامة.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٥) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٦) كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٧) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٨) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩٢)

[٨٥] هنا يأتي دور إظهار الأمة المسلمة إيمانها بجميع الأنبياء، فإنه مقتضى وحدة الرسالات ومقتضى ما سلف من إيمان كل سابق باللاحق وتصديق كل لاحق للسابق {قل} يا رسول الله صيغة الإيمان التي يجب الاعتراف بها على كل أمتك {آمنا بالله} إلهاً واحداً {و} بـ {ما أنزل علينا} من القرآن الحكيم وسائر الأحكام {و} بـ {ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط} أولاد يعقوب الذين كانوا أنبياء {و} بـ {ما أوتي} أي أعطي {موسى} من التوراة {وعيسى} من الإنجيل {و} بما أعطي {النبيون من} قبل {ربهم لا نفرق بين أحد منهم} أي من هؤلاء الأنبياء لا كاليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وآله) ولا كالنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وآله) {ونحن له} أي لله {مسلمون} منقادون فيما أمرنا ونهانا.

[٨٦] {ومن يبتغ} يطلب ويريد {غير الإسلام ديناً} من الأديان السماوية أو المفتعلة {فلن يقبل منه} أبداً في الدنيا بل تجري عليه أحكام الكفار {وهو في الآخرة من الخاسرين} الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم جميعاً.

[٨٧] إن الذين أدركوا حقيقة وحدة الرسالات وحقيقة محمد (صلى الله عليه وآله) ودين الإسلام ثم أنكروا وعاندوا فقد ظلموا أنفسهم وأبعدوها عن لطف الله وهدايته فلا يلطف بهم الله لطفاً خاصاً ولا يهديهم بل يتركهم في ظلمات كفرهم {كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم} والمراد بالإيمان علمهم بحقيقة الرسول الإيمان في الظاهر، إلا إذا أخذنا بما ورد في بعض التفاسير والروايات من أنها نزلت في رجل آمن ثم ارتد ثم ندم فأرسل إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) من يسأله عن قبول توبته فأجاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بالإثبات فتاب وحسن إسلامه، ولذا استثنى في آخر الآيات «إلا

الذين تابوا» {وشهدوا أن الرسول حق} شهادة واقعية وإن لم يظهروها ولم يلتزموا بلوازمها {وجاءهم البينات} الأدلة الواضحة على صدق الرسول (صلى الله عليه وآله) وحقيقة ما جاء به {والله لا يهدي القوم الظالمين} أي لايلطف بهم اللطف الخاص الذي يلطف به بمن استقام ولم يظلم نفسه.

[٨٨] {أولئك} الذين كفروا بعد إيمانهم {جزاؤهم أن عليهم لعنة الله} بإبعادهم عن رحمته ومغفرته وثوابه {والملائكة والناس أجمعين} فإنهم يدعون عليهم بالعذاب ويلعنونهم.

[٨٩] {خالدين فيها} أي يخلدون في اللعنة والطرد أبد الآبدين {لا يخفف عنهم العذاب} أي لا يسهل عليهم لأنهم بكفرهم استحقوا العقاب الدائم {ولا هم ينظرون} أي لا يؤخر عنهم العذاب من وقت إلى وقت، أو لا ينظر إليهم.

[٩٠] {إلا الذين تابوا} عن كفرهم {من بعد ذلك} الكفر بأن آمنوا {وأصلحوا} في أعمالهم أي عملوا الصالحات {فإن الله غفور} لكفرهم وذنوبهم {رحيم} بهم فلا يؤاخذهم بسيئاتهم.

[٩١] هذا حال من آمن بعد ارتداده وتاب، أو آمن بعد علمه بالحق وكفره، أما من بقي على كفره بعد الإيمان فجزاؤه ما يأتي {إن الذين كفروا بعد إيمانهم} بالنبي وبما جاء به {ثم ازدادوا كفراً} فإن الكافر ببقائه على الكفر يزداد كفراً فإن كل ساعة يكون كافراً فيها يكون أكثر كفراً من الساعة المتقدمة، أو المراد ازدياد الكفر باستحكامه فإن الإنسان كما يزداد إيماناً كلما رأى آيات الله كذلك يزداد كفراً كلما أعرض عما يراه من الآيات {لن تقبل توبتهم} التي تأتي منهم حال الاحتضار فإن المحتضر حيث يرى حقيقة الإيمان يتوب في قلبه ويندم ولكن لا تقبل توبته كما قال سبحانه (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)[٣١] {وأولئك هم الضالون} الذين ضلوا طريق الحق في الدنيا وعذبوا في الآخرة.

[٩٢] {إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار} ممن لم يتب حتى في حال الاحتضار كما قال سبحانه (وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ)[٣٢] بعد الآية السابقة: «وليست التوبة» أو المراد التعقيب على «لن تقبل توبتهم» أي أن أولئك الذين لم تقبل توبتهم في الدنيا لا ينجون من عذاب الله يوم القيامة بإعطاء الفدية {فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً} أي مقدار ما يملأ الأرض من الذهب {ولو افتدى به} لا ينفعه {أولئك لهم عذاب أليم} مؤلم وموجع {وما لهم من ناصرين} ينصرونهم من عذاب الله وسخطه.

نهاية الجزء الثالث

(٣١) سورة النساء: ١٩.

(٣٢) سورة النساء: ١٩.